الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

-جامعة الجيلالي بونعامة-

-خميس مليانة-

كلية: العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم: العلوم الإنسانية

شعبة: التاريخ

تخصص: تاريخ الجزائر الحديث

الحياة الاجتماعية في الجزائر من خلال كتب الرحالة المغاربة خلال العهد العثماني (1519-1830)

مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص: تاريخ الجزائر الحديث

إعداد الطالبتين:

* فتيحة صوداقي
* فاطمة لعمري

إشراف:

أ. **د/ دوحة عبد القادر**

السنة الجامعية:

2020 -2019

الشكر والعرفان

قد لا تكفينا كلمات العالم للتعبير عن معنى الشكر والعرفان وقد لايوصف معنى التقدير والامتنان، نتوجه بالشكر الجزيل للمولى عزوجل قبل كل شيء.

نتقدم بالشكر للأستاذ المشرف البروفسور دوحة عبد القادر للإشراف على مذكرتنا.

كما لايفوتنا أن نشكر كافة أساتذة التاريخ الذين تدرجنا على أيديهم طيلة مسارنا الجامعي

وكما نتوجه بخالص مشاعر الفخر والتقدير والامتنان والاعتراف بالجميل إلى جميع أفراد أسرتنا.

كما نشكر زملائنا الطلبة والطالبات الأفاضل اللذين لم يبخلوا علينا بشيء وكل من ساهم بصدقفي تقديم المساعدة لإنجاز هذه المذكرة.

فتيحة ـ فاطمة

اهداء

الحمد لله الذي به تتم الصالحات

أهدي تحياتي إلى من جعلت الجنة تحت قدميها إلى من أشرقت الشمس بين يديها...إلى ملاكي في الحياة...إلى بسمة الحياة وسر الوجود...إلى من كان دعاؤها سر نجاحي..إلى رمزالحب - أمي الحنونة ـ أطال الله في عمرها.

إلى من علمني العطاء دون إنتظار إلى من أحمل إسمه بكل إفتخار أبي الغالي...أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثمارا حان قطافها بعد طول انتظار- أبي الغالي ـ أطال الله في عمره.

إلى من قاسمتني رحم أمي أختي العزيزة ـ فاطمة الزهراء-

إلى من في الفؤاد مشاعر الإيمان إلى من محبتي لهم يفيض الوجدان إلى الورقة المسطرة على قلبي وأحملها أينما سرت إخوتي الأعزاء: سيد علي، محمد رياض، كريم

إلى من معهن أسعد وبرفقتهن في دروب النجاح والخير سرت صديقاتي اللواتي تقاسمت معهم الشقاء والسعادة في لأيام الجامعية: أمال، رشيدة، لامية، سمية

إلى ليلى، مريم، نجاة، إيمان، فاطمة الزهراء، جميلة، نسرين، سمية، فيرووز، سماح، أسماء

صوداقي فتيحة

اهداء

الحمد لله الذي بنعمته تتم به الصالحات

إلى من كان سببا في وجودي وسهرا على نجاحي

- والدي الغاليين الكريمين-

إلى من بهم تحلو الحياتي وتكمل سعادتي - إخوتي الأحباء -

إلى من كنّ أنسا لي في دربي - صديقاتي العزيزات -

إلى كل طالب علم

لعمري فاطمة

مقدمة

شهدت الجزائر في ظل الحكم العثماني (1519-1830م) تحولات عميقة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث تناولت أغلب الدراسات والأبحاث جوانب عديدة من هذه الفترة الزاخرة بالأحداث فإنها لا تكاد تغطيها جميعا، خاصة ما تعلق بدراسة الحياة الاجتماعية في الجزائر من خلال الرحلات المغاربة.

حيث اعتبرت الرحلات وثائق تاريخية، وخرائط جغرافية تؤرخ للفترات التي ظهرت فيها تعدد الممالك وتبين المسالك، وتصف مختلف جوانب الحياة. تبرز العادات والتقاليد وتصف مظاهر العمران والطبيعة.

كما اتسمت الرحلات في أغلبها بالدّقة الملاحظة في الوصف والتفريق بين المشاهد والمروي، كما كانت لكتابات الرحالة قيمة معرفية كبيرة ومفيدة، إذ تعتبر مصدرا هاما تبرز أهميته في تزويد الباحث بمعلومات جمّة ومتنوعة عن حضارة الشعوب وثقافتهم عبر التاريخ. وفي هذا السياق التاريخي يندرج موضوع بحثنا الموسوم بـ" الحياة الاجتماعية في الجزائر من خلال كتب الرحالة المغاربة خلال العهد العثماني ".

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في عدة نقاط ومن بينها:

- معرفة الواقع الاجتماعي للجزائر في ظل الحكم العثماني من خلال الرحلات المغاربة خلال العهد العثماني.
- إبراز أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في الجزائر.

دواعي اختيار الموضوع:

ومن دواعي اختيارنا للموضوع:

- إدراكنا لأهمية البحث في هذا المجال كونه موضوع مهم يمس الحياة الاجتماعية للجزائر من خلال الرحلات المغاربة، كما أنه موضوع ثري والدراسات حوله قليلة.خاصة فيما تعلق بالرحلات المغاربة.
- تركيز المؤرخين على البحث في الجانب السياسي والعسكري وإهمالهم جزئيا للجانب الاجتماعي وغيره
- تحفيز وتشجيع الأستاذ المشرف لنا بالبحث في هذا الموضوع.

الإشكالية:

انطلاقا مما سبق ذكره نجد بأن موضوع بحثنا يطرح إشكالية رئيسية تتمثل في: إلى أي مدى أعطتنا رحلات مغاربة صورة عن الحياة الاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني؟

وبدورها تتفرع إلى إشكاليات جزئية وهي:

- ما هي أهم مميزات المجتمع والعناصر المكونة في الجزائر خلال العهد العثماني ؟
- بماذا تميزت الحياة الاجتماعية للجزائر في الفترة العثمانية ؟

الدراسات السابقة:

أما بالنسبة للدراسات السابقة للموضوع فكانت كالتالي:

- مولاي بالحميسي الذي يعتبر من أبرز المؤرخين في الفترة الحديثة، باعتبار أن له كتابات عديدة منها الجزائر من خلال الرحلات المغاربة خلال العهد العثماني، حيث تناول دراسة الجوانب الاجتماعية من خلال الرحلات المغاربة.
- رحلة الورثيلاني المسماة " نزهة المشتاق في فضل علم التاريخ والأخبار.

المنهج المتبع:

أما بالنسبة للمنهج المتبع في الدراسة فإن طبيعة الموضوع اقتضت أن يكون المنهج تاريخي وصفي والذي يسمح لنا بعرض وقائع الأحداث ووصفها، كما اعتمدنا على المنهجية العلمية المرتكزة على استقصاء الأحداث التي تستند على الوقائع التاريخية، من حيث الاطلاع على عدة مصادر ومراجع تصب في الموضوع.

خطة البحث:

وللإجابة على الإشكالية المطروحة قسمنا موضوعنا إلى مقدمة وثلاثة فصول، حيث جاء الفصل الأول تحت عنوان: تاريخ الرحلة وتطورها، وينقسم إلى أربعة مباحث حيث تناولنا في المبحث الأول تعريف الرحلة والمبحث الثاني دوافع الرحلة، أما المبحث الثالث تطرقنا فيه إلى أنواع الرحلة وأهميتها والمبحث الرابع نظرة عن الرحالة المغاربة.

أما الفصل الثاني جاء بعنوان: بنية المجتمع في الجزائر، والذي يحتوي على مبحثين فالمبحث الأول اعتمدنا فيه على التركيبة السكانية أما المبحث الثاني جاء بعنوان الأوضاع الديموغرافية.

والفصل الثالث الموسوم بمظاهر الحياة الاجتماعية في الجزائر، والذي ينقسم إلى ثلاثة مباحث فالمبحث الأول فقد تضمن العادات والتقاليد للمجتمع الجزائري أما المبحث الثاني تطرقنا فيه إلى الأطعمة واللباس وقام المبحث الثالث بدراسة الصحة.

وفي الأخير خلصنا إلى خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال الإجابة على الإشكالية الرئيسية، واتبعنا الخاتمة بملاحق مكملة للموضوع وتليها قائمة المصادر والمراجع وفي الأخير قائمة الفهارس.

المصادر والمراجع:

لقد تطلب منا دراسة هذا الموضوع أن نرجع إلى العديد من المصادر التاريخية، التي استفدنا منها قدر الإمكان، ومن أهم هذه المصادر التي اعتمدنا عليها منها:

- وصف إفريقيا لحسن الوزان الفاسي، الذي يعتبر مصدر مهم لنهاية القرن 15م وبداية قرن16م، باعتباره عايش هذه المرحلة، كما أنه يعتبر من أبرز المؤرخين للفترة الحديثة، بحيث أعطى لنا فكرة شاملة عن تاريخ الجزائر في مختلف المجالات خاصة الجانب الاجتماعي باعتباره زار الجزائر في هذه الفترة.

– رحلة الورثيلانية للحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، حيث أفادتنا على التعرف على الواقع الاجتماعي للجزائر خلال العهد العثماني،والتي تعد بمثابة موسوعة عن جزء كبير من أخبار العالم الإسلامي في القرن 18م

– وكذا ابن حمادوش الجزائري في لسان المقال"عن النّبأ والحسب والحال"والذي تناول من هذا المصدر في الاحتفال لختان المولود، إضافة إلى مذكرات أحمد شريف الزهار لأحمد شريف الزهار.

دون أن ننسى رحلات كل من الزياني والمكناسي في الترجمانة الكبرى والإحراز المعلى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب.

إضافة إلى اعتمادنا على مجموعة من المراجع منها:

– مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال الرحلات المغاربة خلال العهد العثماني.

– ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العهد العثماني.

الصعوبات:

من خلال إنجازنا لهذا البحث واجهنا بعض الصعوبات منها الظروف الإستثنائية وهي الجائحة العالمية التي شهدها العالم (كوفيد–19) والذي أدى إلى غلق جميع المرافق العمومية بما فيهم المكتبات مما حال دون تمكننا من جمع القدر اللازم من المصادر والمراجع سوى ما قمنا بتحميله عن طريق موقع قوقل، وأحيانا واجهنا صعوبة في تحميل بسبب غلاء ثمن الكتاب. وابتعادنا عن المحيط الجامعي مزادنا تعقيدا صعوبة التواصل المباشر مع المشرف وتحصلنا على توجيهات وتلقيحات. وعلى الرغم من هذه الصعوبات والعقبات لم يكن علينا نحن كطلبة علم إلا تخطيها بفضل الدعم المستمر ونصائح وتوجيهات التي تلقيناها من أستاذ المشرف إضافة إلى الدعم من طرف زميلات في الجامعة وحتى العائلة، كما لا يفوتنا الشكر لكافة الأساتذة أعضاء اللجنة المناقشة الذين لا يبخلون علينا بمعلوماتهم وملاحظتهم.

وآخر قولنا الحمد لله الذي وفقنا في هذا العمل ونام لان يكون هذا البحث قد أضاف ولو القليل اليسير في مجال الاجتماعي لا ندعي الفضل والكمال فما نحن إلا طلبة لازلنا في طريق البحث لا يخلو من العثرات ونسأل الله التوفيق والسداد في الخطى.

الفصل الأول:

تاريخ الرحلة وتطورها

المبحث الأول: تعريف الرحلة

المبحث الثاني: دوافع الرحلة

المبحث الثالث: أنواع الرحلة وأهميتها

المبحث الرابع: نظرة عن الرحالة المغاربة

تمهيد:

شكّلت الرحلة منذ القدم نوعا من النشاط الإنساني الحيوي، فالإنسان لم يتوقف عن الحركة والنقل لأنها سمة من سماته التي لا يمكن بأي حال التوقف عن ممارستها في حياته وإن كان عرف الاستقرار، فقد ظلّت الرغبة في استكشاف الآفاق البعيدة تشّده إليها، أما المغاربة فكان لهم سبق في هذا المجال وتفوقوا على المشرق، ومهما كان الغرض من تلك الرحلات فإنها أصبحت بدون شك مصدر هام من مصادر التاريخية.

المبحث الأول: تعريف الرحلة:

أ/ الرحلة في اللغة:

عرف في معجم الوسيط في مادة (رحل) ما يلي: رحل عن المكان رحل ورحيلا وترحالا، الرحال: العرب الرحل: اللذين لا يستقرون في مكان ويجلبون بماشيتهم، حيث يسقط الغيث وينبت المرعى[1]، والرحلة: الارتحال جمع رحل.

في قوله تعالى << لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) >>[2]. كما ورد حيث حفيت مادة الرحل بشرح واف في عديد من المعاجم العربية فقط، جاء في لسان العرب: الترحيل والرحالة بمعنى الأشخاص ويقال رحل إذا سار، رحلته أنا ورجل رحول وقوم رحل، أي يرتحلون كثيرا ورحل رحال: عالم بذلك مجيد له[3].

وفي محيط الفيروز أبادي: ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان انتقلوا كترحلوا، والاسم: الرحلة بالضم، أو بالكسر: الارتحال بالضم الوجه الذي السفرة الواحدة[4].

فقد تعددت مفاهيم الرحلة، غير أنها تصب في مفهوم واحد وهو الترحال أي الانتقال من مكان إلى آخر، فاللغة العربية بحر واسع وعميق بالمعارف والعلوم المختلفة، ونجد أن لفظ الرحلة في موضع آخر، " والترحل والارتحال: يقصد به الانتقال، وهو الرحلة اسم للارتحال للمسير.... [5].

ب ـ الرحلة في الإصطلاح:

عرف حسين فهيم الرحلة مفادها أنها ساعدت على اكتشاف موطن الإنسان وأكدت للإنسان مدى انتشاره على سطح الأرض، ويتم انجازها من رجال دين وعلم وطوافون من

---

[1]– منجد الوسيط في العربية المعاصرة،(دون مؤلف)، دار المشرق، ط1، بيروت2003م، ص 409.

[2]– سورة قريش: الآية (1، 2).

[3]– ابن المنظور، لسان العرب، ج11، دار صادر،(د،ط)، بيروت (د، س)، ص ص 276 ـ 277.

[4]– مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي شيرازي، قاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، لبنان 2008 م، ص 1005.

[5]– ابن منظور، مرجع سابق ج 11، ص 278.

هواة السفر والترحال، وآخرون استهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطر إلى كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس[1]، ويشترك المفهومان اللغوي والاصطلاحي للرحلة في الحركة على أنها لون أدبي ذو طابع قصصي يعمل فائدة للمؤرخ والباحث والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، وهي ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف والأوضاع واكتشاف المعالم والأقطار ووصفها والحكم عليها، فهي إذن وصف لكل من ذلك سواء في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط بتآزر في ذلك الواقع والخيال وأسلوب القصص والحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها.

والرحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يمارسها الباحثون والفقراء، حيث يصبحون أكثر فهما وأكثر صدقا وملاحظة وأغنى ثقافة وأعمق تأملا[2]. كما تعرف الرحلة بأنها مجموع الكتابات التي لها علاقة بفعل السفر وكذلك عرفها فرانك ميشال قائلا: فالسفر هو العبور من الذات نحو الآخر أنه قبل كل شيء هو لقاء لآخر ويستند الالتزام الثقافي باكتشاف الآخر إلى المشروعية الطبيعية في الخروج من الذات بالنظر إليه على أساس حق طبيعي قبلي والذي يعبر عنه بعديا، باعتبارها حق ثقافيا، وإذا كانت الرحلة في بلد الغير وفي ثقافته وأحواله، فهي بالأساس رحلة نحو الذات بحكم أن ما يشاهد وما يوصف لا يتم إلا عن طريق المقارنة مع الذات، وعليه فالسفر ليس رحيلا جغرافيا فحسب وإنما هو دنو تاريخي من الذات[3].

ج)- الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية:

لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحثه على فعلها ومنها الرحلة، سواء كانت للعلم أو الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض لإسلام أو الحج أو التجارة[4]. وفي بداية الحديث عن الرحلة لابد من التطرق إلى أولى الرحلات الثانية لدينا

---

[1]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلة، دار عالم المعرفة، (د، ط)،الكويت 1978م، ص 11.

[2]- زوبيدة برادع وفتيحة عيساوي، أدب الرحالة في الجزائر – رحلة ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال نموذجا، مذكرة لنيل شهادة ماستر في اللغة والأدب العربي جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر، 2015 – 2016، ص ص 8- 9.

[3]- نجاة بن فاطمة ونجاة ناجي، كتاب الرحالة حول الجزائر في الفترة الحديثة، مذكرة لنيل شهادة ماستر في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، جامعة الوادي، 2017 – 2018، ص 14.

[4]- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ المجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، (د، ط)، 1996م،ص 29.

والمستفاد من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية، وهو القرآن الكريم فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على الرغم من عدم ورد لفظ رحلة فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش، قال تعالى: << لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) >>[1].

وقد تباينت وسائل السفر وتنوعت مادة الرحالة، كما صنف الكثير عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها وأحوال الشعوب، كما هو معروف فإن رحلة قديمة قدم الزمن البشر، فكانت هناك أسباب ودوافع جعلت تلك الأخيرة تظهر منذ أمد بعيد فهي تعبر عن حضارات العصور وثقافتهم المختلفة[2].

ومن المعلوم أن أول رحلة قام بها الإنسان هي تلك الرحلة التي أشار إليها القرآن الكريم لقوله تعالى: << وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) >>[3].

خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل، وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك والجسم القوي الرشيق الذي يعينه على الانتقال من موضع لآخر، بحثا في البداية عن طعامه وشرابه، هربا من القوى المعادية، وقد بدت له عاقبة مخيفة، سواء كانت الطبيعة من برق ورعد وعواصف أو فيضانات وزلازل وبراكين أو كانت حيوانات ضخمة كالديناصورات أو المفترسة كالأسود والنمور والذئاب فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان وقد هيأ الله لها، وجعلها إمكانية ضرورية لحياته تتسق مع الهدف من إيجاده والغاية التي خلق لأجلها وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى[4].

---

[1]– سورة قريش: الآية {1 – 4 }.

[2]– زوبيدة برادع وفتيحة عيساوي، مرجع سابق، ص 10.

[3]– سورة البقرة: الآية { 34، 35، 36، 37، 38 }.

[4]– حسني محمود حسين، أدب الرحلة عن العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر ن بيروت، ط2، لبنان 1983 م، ص 05.

المبحث الثاني: دوافع الرحلة:

تنوعت الرحلة بتنوع أسبابها وحوافزها فهناك دوافع دينية كالحج الى البقاع المقدسة، ودوافع علمية بغرض الاستفادة من العلم في مناطق عرفت بالعلم، ودوافع اقتصادية للتجارة وتبادل السلع والبحث عن أسواق جديدة، ودوافع سياحية ودوافع ثقافية للتزويد بالمعارف والتقاليد وكل الأعراف، وكذلك دوافع للعلاج، ودوافع سياسية كالوفود والسفارات التي يبعثها الملوك والحكام ونظائرهم إلى الدول الأخرى أو بتكليف من السلطات كما حدث في القرن الثامن عشر، حيث تعاقبت البعثات الاستكشافية الأوروبية على القارات القديمة والجديدة بحثا عن مجالات أوسع لمستعمراتها[1].

إن من أهم الأسباب والدوافع التي مهدت للرحلة والرحالة واتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، وهذا ما أدى بالمسلمين إلى الترحال والسفر، حيث تختلف الدوافع من شخص لآخر، ومن قوم لآخر إلا أنها لا تخرج في الأغلب أن تكون كالآتي:

أ-الدوافع الدينية:

وتظهر في الرحلات لتي كانت تقام إلى الحج فكان الحاج يجني من رحلته فضلا عن تأدية الفريضة، فوائد جمة منها التوبة وتطهير النفوس من الذنوب والمعاصي أملا في المغفرة والالتقاء بمعظم العلماء وفقهاء العالم الإسلامي، ومن ثم التجارة التي يجني من ورائها النفع والكسب المادي، ومن العوامل الدينية التي ساعدت على الترحال في فجر الإسلام هو جمع الحديث من أفواه الرواة فكانت ملتقى المسلمين وموقع التعارف وتبادل الأفكار والمنافع[2].

ب-الدوافع التجارية والاقتصادية:

التجارة أمر يقتضي القيام بالرحلة والسفر وكان التجار يضربون في أراضي جديدة عن طريق القوافل، وعن طريق البحر وكذلك من أجل تبادل السلع وفتح أسواق جديدة

[1]- محمد حسين فهيم، مرجع سابق، ص11.

[2]- أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي،(د،ط)، جدة (د،س)، ص ص11-13.

للمنتجات المحلية أو لجلب السلع، وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء انخفاض الأسعار والوفرة أو العمل، واستمرت الرحلات التجارية التي اشتهر بها العرب وازدهرت تلك الأخيرة نتيجة لاتساع الدولة وسهولة التنقل داخل أقاليمها، لذلك كان هذا الدافع له أثر كبير في توثيق الوحدة الثقافية والدين في الأقطار العربية الإسلامية[1].

ج- الدوافع الثقافية:

ويقصد بها الاستجمام والتجوال، أي هناك من الرحالة ما كان يدفعهم أفاق شوق جديد لاكتشاف المجهول في بلاد بعيدة غير معروفة الأحوال واللغات، وخوض مغامرات مهمة وجديدة، والمعرفة الجديدة من خلق الطبيعة والبشر واكتساب الخبرة وكذلك التعرف على المعالم الشهيرة كلأ ثار ومنارات والأبراج والكهوف والغرائب والعجائب[2].

د-الدوافع السياسية:

فهي تتعلق بالأوضاع السياسية وتلك الوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك الدول الأخرى بهدف توطيد العلاقات والتبادل التجاري ومناقشة شؤون الحرب أو السلاح تمهيدا لفتح أو غزو، والمهمات السياسية التي يروج فيها كبار القوم من علماء وأدباء بمن كان يصاحبهم ومساعدين، التي تقدم معلومات قيمة عن البلاد التي زارها السفراء وعن الأحوال الدولية في ذلك العهد وعن التطورات التي تمر بها الأمم[3].

ج-الدوافع الذاتية:

هي الأساس الذي تبنى عليه الرحلة ثم تأتي الأسباب الظاهرية والعامة وتكون مبررا مقبولا لقيام الرحلة، والأساس أن الرحلة غاية وأنها ضرورة والمقصود بالضرورة هنا الضرورة الذاتية التي تدفع الإنسان للرحيل رغم أنها تكون مضادة لرغباته ومنافية لتوجهاته العقلية ومخالفة لاستحسان الآخرين[4].

---

[1]- محمد محمود محمدين، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي، ط2، الرياض1996م،ص 178.

[2]- فؤاد القنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة دار العربية للكتاب، ط2، القاهرة 2002 م، ص ص 21-23.

[3]- عبد الهادي التازي، ابن بطوطة أمير الرحال، دار العربية والنشر، ط2، الكويت2002م، ص 95.

[4]- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في أدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار النشر لجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، ط1،القاهرة 1995م، ص26.

كذلك تكون الرحلة بدافع الكشف عن حقيقة الكون والرغبة في العزلة والتأمل لأنهما إثنتان من الحاجيات الضرورية اللازمة لأي شخص مفكر، وكذلك نجد أن الرحال يخرج من أجل ارضاء لفضوله وحب استطلاعه، وقد يكون أيضا الدافع هو الغيرة الشخصية أو طلب الشهرة، وكذلك بهدف تنمية القدرات الذاتية، فهي معلم ممتاز على المستويين النظري والعلمي[1].

و-الدوافع العلمية:

من أهم بواعث هذه الرحلات طلب العلم الذي طغى على نمط الرحلة، فالعلم يعتبر عاملا أساسيا لابد منه نتيجة أهمية ومدى مساهمة في تطوير الثقافات الفردية، كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم:{طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم مفروض على كل مسلم، ولولا هذا لما ازدهرت الأمم}[2].

وقد روى البخاري في القرن الثالث هجري أن جابر عبد الله رحل مسيرة شهر الى عبد الله بن أنيس في طلب الحديث، وكذلك الرحلة التي تمت في عهد الخليفة العباسي الواثق (227هـ-232هـ)، وكذلك بغرض زيادة من العلم في منطقة أخرى ذاع:صيت أبنائها في مجالات العلوم كالفقه والحديث والهندسة[3].

ز- الدوافع الصحية:

كالسفر للعلاج أو الاستفتاء أو راحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر والاكتئاب كالارتحال إلى المناطق الريفية الهادئة ونحوهما، وقد يكون هربا من وباء الطاعون أو التلوث[4].

وأياما أنه مهما كان السبب أو الدافع من وراء الرحلة فإنها في أغلب الأحيان سلوك إنساني حضاري يأتي بثمار نافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست جماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها، ومن هذا فإن الرحلة تصبح

[1]- ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص27.

[2]- فؤاد القنديل،مرجع سابق، ص 19.

[3]- محمد محمود محمدين، مرجع سابق، ص176.

[4]- فؤاد القنديل، المرجع السابق، ص20.

اليد الذي تمتد لتقرب الشعوب، وأقوام تفصل بينهم البحار[1]. لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) }[2].

المبحث الثالث: أنواع الرحلة وأهميتها:

1. أنواع الرحلة:

حيث تناول الباحثون المعاصرون تصنيف الرحلات أو الرحالين وظهر اختلاف في تصنيفهم، ففريق اتبع المنهج التاريخي فلجأ إلى الفترة التاريخية الزمنية كحكم، وغيرهم خلط بين المنهجين التاريخي والجغرافي، وفريق ثالث استنطق النصوص فأخرج أنواعها لا رابط بينهما، وفريق ذهب بعدد ما هو ممكن لا ما هو واقع بالفعل، وفريق أخير اقترب من الحق[3]. وقد كانت الرحلة عنصرا قويا في الحياة لهذا تعددت أنواعها من خلال الأغراض والدوافع والغايات التي كانت تقام من أجلها وهي كأتي:

أ-الرحلة الدينية:

وكان الغرض منها الترحال والسفر بغرض كسب القوت والمعيشة والتعرف على العادات والتقاليد للأمم والبلدان المجاورة[4]، ويقصد الرحلة التي تتضمن أو تدخل فيها فريضة الحج إلى الكعبة في مكة المكرمة وما يتركه في النفس من أشواق ومشاعر تحرك قرائح الشعراء والأدباء، وتدفعهم لتسجيل ملاحظاتهم وما يرونه في البقاع المقدسة خلال السفر إليها ويصوغون ذلك في قوالب فنية تخلد رحلتهم وذكرياتهم، وكذلك كان القصد من الرحلة الدينية هي زيارة الشيوخ الأولياء وأضرحتهم السبب الكبير الذي دفع الصوفيين إلى الرحلة، فكتبوا عن المشاهد والمزارات والكرامات وإتعاب السفر في ذلك ومن أمثلة عن اللذين قاموا بالرحلة في المجال الديني ابن جبير الذي قام بثلاث رحلات إلى الحج[5]، وكذلك المقري

---

[1]- سميرة أنساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى،(د،ط)، الجزائر 2009م، ص ص 38-39.

[2]- سورة الحجرات: الآية{13}.

[3]- ناصر الدين الموافي، مرجع سابق، ص31.

[4]- صالح الدين الشامي، رحلة عين الجغرافية المبصرة، دار المعرفة، ط2، الإسكندرية 1999م، ص63.

[5]- نجاة بن فاطمة ونجاة الناجي، مرجع سابق، ص24.

اشتهر برحلاته الذي تجاوزت خمس مرات إلى الحج. وابن زروق اشتهر بزيارته لأولياء وملازمتهم، ومثله عبد الله ابن سودة الذي زار ضريح عبد السلام ابن مشيش أكثر من 70مرة[1].

ب-الرحلات الاقتصادية والتجارية:

ويظهر هذا في مجال التجارة خصوصا، وإن بلاد العرب عرفت تبادلا تجاريا مع الهند والصين[2].

فرحل العرب إليها وجاء إلى بلادها كثيرا من الرحالة ولما انتشر الإسلام وبسطت الخلافة الإسلامية سلطانها على العالم اتسع نطاق التجارة يشمل إفريقيا وأوروبا وكانت أماكن خصبة لكثير من الرحلات، والرحلة الاقتصادية هدفها معرفة المواقع الإستراتيجية لتسهيل نقل البضائع، ومعرفة الهياكل القاعدية في البلدان لتسهيل الاستثمار والسيولة[3].

ج-الرحلات الوصفية:

ويقصد بها أن التي تهتم بالجانب الوصفي، تتجسد في رحلة ابن جبير وابن بطوطة والعبدري[4]، وكلهم اهتموا تقريبا بالجانب الوصفي، وتشمل الرحلات الوصفية على الجوانب التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة للرحلة، والنوادي الاقتصادية،الاجتماعية والسياسية وركزت أساسا على الجانب الثقافي وهو ما اشترك فيه جميع الرحالة واعتمدت الرحالات الوصفية على وصف الأحوال الجوية، ووصف المدن، ووصف المساجد، والمباني، ووصف القلاع والحصون....[5].

---

[1]- حسين نصار، أدب الرحلة، دار نوبار للطبعة والنشر، القاهرة، ط1، 1991، ص ص32-79.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 106-107.

[3]- نفسه، ص110.

[4]- أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري،، تحقيق:علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، ط2، دمشق2057م،ص ص7-8.

[5]- عواطف محمد يوسف النواب، مرجع سابق، ص76.

د-الرحلات الإدارية:

هي التي تكلف بها إحدى الإدارات أو حكم نفسه أحد رجال أو مجموعة معينة لتحقيق هدف معين، وعندما اتسعت الدولة الإسلامية وترامت أطرافها تحتم عليها اتخاذ أعيان وسفراء ينقلون لها الأخبار[1].

ويذهب بعض الدارسين إلى أن التجسس كان سبب في قيام بعض الرحلات القديمة، أما في عصر الحديث فلأمر لا يحتاج إلى برهان بأن التجسس هو السبب الخفي للكثير من الرحلات الإدارية ويدخل هذا ضمن روايات الأسرى المسلمين في البلاد الأجنبية وتشمل جوانب هذه الرحلات في أعمال القائمين بالسفارة، والتمثيلات الدبلوماسية[2].

ذ-الرحلات العلمية:

إن أولى القصص التي تحدثت عن الرحلة العلمية جاءت في القرآن الكريم عن رحلة موسى عليه السلام ولقائه الرجل الصالح الخضر عليه السلام واصطحابه لغرض التعلم[3].

قال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60)}[4].

الهدف من الرحلة العلمية هو طلب العلم والتفقه في الدين ومن الأغراض التي تدعو إليها هي التعلم والاعتبار بأحوال الأمم الماضية[5]. ولذلك سعى المسلمون لطلب العلم من مكان لآخر مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم، قال تعالى:{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) }[6].

والرحلات العلمية اتصف بها المغاربة والأندلسيين لأنهم كانوا ينتهزون فرصة أدائهم لفريضة الحج في التجوال بين المراكز العلمية، مثل:الإسكندرية والقاهرة للقاء العلماء

---

[1]- حسين نصار، مرجع سابق، ص45.

[2]-المرجع نفسه، ص 45.

[3]- سميرة أنساعد، مرجع سابق، ص 21.

[4]- سورة الكهف:الآية{60}.

[5]- سميرة أنساعد، المرجع السابق، ص 21.

[6]- سورة الجاثية:{13}.

والمشايخ والأخذ عنهم وتسجيل كل ما أخذوه عنهم[1]، وأطلق على هذا النوع من الرحلات لفظ البرنامج أو الفهارس[2]. من أجل ذلك تنقل العلماء بين الأقطار يعلمون ويتعلمون في المعاهد والزوايا المنتشرة شرقا وغربا، وسعوا للتلقي والأخذ عن العلماء بحضور مجالسهم العلمية، ونيل الإجازات.

كما هدف الرحالة إلى تحصيل الحديث والثبت من الرواية مثل رحلة عبد الرحمان الثعالبي الذي حصل الحديث، فنال بذلك إعجاب محدثي عصره بعد عودته من المشرق[3].

ر- الرحلات السفارية:

ظهر هذا النوع في القرن السادس عشر فكان السلاطين السعديون وبعدهم العلويين يعينون بعض المقربين لهم للقيام بالمهمة في البلدان الأجنبية أو الإسلامية لدى ملوكها[4]، وهذا ما وقع للتمقروتي[5] عندما كلفه أحمد المنصور بالذهاب إلى اسطنبول وعند العودة يكتب تقريرا مفصلا يسرد فيه كل ما رأى أو حدث له في رحلته أو كل ما أطلع عليه، كذلك نجد أن الدكتور أحمد رمضان قسم الرحالة إلى رحالة مشارقة، مغاربة، ورحالة جغرافيين ولهم منهج مشترك، أما الدكتور شوقي الضيف صنف الرحلات إلى: رحلات جغرافية – رحلات بحرية – رحلات في الأمم والبلدان[6].

---

[1]- عواطف محمد يوسف نواب، مرجع سابق، ص73.

[2]- هو كتاب يجمع فيه الشيخ أسماء شيوخه وأسانده من مروياته وقراءته على أشياخه، أنظر المرجع نفسه، ص72.

[3]- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، ج1،(د، ط)،الرباط (د، ت)، ص 92.

[4]- مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال الرحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2،الجزائر 1981 م،ص 11.

[5]- أبو حسن بن علي ابن محمد التمقروتي، للمزيد أنظر :المرجع نفسه:ص 16.

[6]- ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص 31.

2-أهمية الرحلة:

تعتبر الرحلة أمرا لازما للعلم فيقول ابن خلدون: "...الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرحال...[1].

الرحلة حلقة رائعة ومثيرة من تلك المنظومة الإلهية لتحقيق المزيد من محاولة اكتساب الذات الإنسانية[2]. وتتمثل أهمية الرحلة في أنّها تجمع في جوهرها على أنها حركة وانتقال فردي أو جماعي ذات هدف يتحقق وفي الحالتين يتسم اكتساب خبرات علمية وفكرية ناجمة عن المخالطة، فهي تشبع حاجيات الإنسان وترضيه.

وبفضل الرحلة نجد أن الرحالة والمفسرين والمفكرين العرب أسهموا بفاعلية خلال العصور المختلفة في تقديم مادة وصفية قيمة تعتمد على المشاهدة المباشرة والخبرة الشخصية للثقافات المغايرة أو حتى مقارنتها مع ثقافة أخرى، واعتبرت هذه المصادر مصادر أثنوغرافية، حيث درست أسلوب الحياة في مجتمع ما وخلال فترة زمنية معينة[3].

للرحلة فوائد جليلة تتمثل في ما يلي:

- الرحلة تزيد من كمال المتعلم وتحصيله، وذلك بلقاء أهل العلم ونقاد المشايخ فإن ذلك يفيده في تفسير الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد.

- توحيد النصوص والتشريعات: ويقصد بها توحيد النصوص والتشريعات في مختلف أقطار العالم الإسلامي وضبطها وجمعها فكان للرحلة أثر البالغ في نقل الأحاديث والنصوص من طوابعها الإقليمي الأصلي إلى الطابع العام المشترك[4].

---

[1]- عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمته، تح: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بين الفنون والعلوم والأداب، ط1، دار بيضاء، مغرب، 2005، ص 226.

[2]- فؤاد القنديل، مرجع سابق، ص 37.

[3]- نجاة بن فاطمة ونجاة ناجي، مرجع سابق، ص 37.

[4]- إسماعيل فاضل، مرجع سابق، ص 43.

وتعتبر الرحلة مصدر حياً من مصادر زيادة الخبرات ويلجأ الكثيرون اليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية[1]، وكذلك للرحلة أهمية كبيرة تتمثل في الحصيلة الثقافية الواسعة وينتج هذا عن الكم الكثير من الأحاديث والكتب المصنفة في هذا المجال ما كان ليتم بالصورة الحالية ويكتمل لولا الرحلات المحدثين شرقا وغربا من الأندلس وحتى الصين[2].

كذلك نجد أن المتعة النفسية التي يتحصل عليها الرحالة من أهم الفوائد التي تتميز بها الرحلة ومعنى ذلك أن الرحلة في طلب العلم وفي طلب الحديث رغم صعوبتها وقسوة ظروفها يشعر صاحبها بالمتعة النفسية يستطيع من خلالها التعرف على أحوال البلاد والمنازل ومشاهدة عجائب البلدان، واختلاف المأكل والمشرب وما تحصل عليه من رياضة ذهنية وبدنية، إضافة إلى الأجر العظيم الذي يناله من الله عزّ وجل، وكذلك نرى أن الرحلات تزيد من توثيق العلاقات بين بلدان العالم الإسلامي فالرحلات الحديثة لها أثر البالغ الواضح في توثيق العلاقات مثلها مثل الرحلات الجغرافية والرحلات التجارية فإنها تجعل الأقطار الإسلامية قطر واحد. تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد تفرح هم، واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحة ماجد[3].

[1]– ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص 28.

[2]– إسماعيل فاضل، مرجع سابق، ص 43.

[3]– المرجع نفسه، ص 43.

المبحث الرابع: نظرة عن الرحالة المغاربة:

1. عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري :

ولد في مدينة الجزائر سنة 1107(1695 م) وعاش إلى أن تجاوز التسعين، حسب بعض الباحثين، ولكننا لا ندري متى توفي بالضبط[1]. وقد نشأ بمدينة الجزائر وتعلم بها العلوم الشائعة عندئذ، وكان من أسرة متوسطة الحال لقبت أسرته بالدباغ لأن والده وعمه كانا يشتغلان بالدباغة، وقد تجوز عبد الرزاق صغيرا من ابنة عمه حسب العائلات المحافظة.

فقد عاش ابن حمادوش حياة مليئة بالفقر والضيق ولم يستطع أن يشق طريقه إلى الثروة والجاه كما كان يفعل المتصلون بالولاة وأرباب السلطة من العلماء[2].

درس ابن حمادوش على طريقة عصره، فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة، بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء بلده ولكن مرحلة تعلمه الأولى لا تزال مجهولة... غير أن يمكن استنتاج ذلك إشارات كرها بنفسه حين تحدث عن عائلته وجيله من الأدباء والفقهاء[3]. تتلمذ ابن حمادوش على يد العديد من مشايخ عصره وفي مقدّمة هؤلاء محمد بن ميمون[4]، وكان علمه وتكوينه في الغالب يعتمد على القراءة حتّى صار موسوعيا يملك عدة معارف وعلوم، وجالس العديد من المشاهير العلماء، سواء داخل الجزائر وخارجها، ونلمس

---

[1]– عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب الحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبوقاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص 09.

[2]– أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830.1500)، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م، ص 425.

[3]– فاطمة مقدم، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وأدابها ضمن مشروع: الأدب الرحلي المغاربي، جامعة وهران، 2010.2011م، ص 07.

[4]– محمد بن ميمون (1120هـ/1708م)هو محمد بن ميمون الزوّاوي الجزائري، وكنيته أبو عبدالله، فقيه صوفي له مشاركة في الأدب والتّاريخ، من آثاره التحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الزائر المحمية. أنظر: (عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت 1980م، ص 113.

هذا من خلال رحلاته وتنقلاته إلى المغرب الأقصى، إلى تونس وإلى المشرق حيث أكمل دراسته، كما أنه عرف باسم الطّبيب[1].

إنّ أهم عمل قام به في مجال الرحلة هو كتابه "**لسان المقال في النّبأ عن حسب والنّسب والحال**"، لقد طبعت رحلة ابن حمادوش في ورشة أحمد زبانة التّابعة للمؤسسة الوطنية المطبعية، وكان هذا سنة 1983، اي بعد ما مضى وقت طويل على كتابتها (أكثر من قرنين من الزمن)، وقد تفضل الأستاذ سعد الله بتحقيقها ونال شرف التّعريف بها، معتمدا على النّسخة العامّة الموجودة في مكتبة الخزانة العّامة بالرّباط تحت رقم ك 463[2].

وتعتبر رحلة ابن حمادوش وثيقة هامّة لمعرفة أوضاع الجزائر الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية وأيضا أوضاع المغرب الأقصى، ونلتمس فيها الوصف الدقيق للحياة اليومية في المناطق التي زارها وأقام بها، يذكر ابن حمادوش عدة حوادث ووقائع وعادات حصلت في مدينة الجزائر، كما زودنا ببعض الأمكنة والشخصيات الفاعلة في تلك الفترة سياسيا وثقافيا[3].

رحلة ابن حمادوش نجدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام: قسم خاص بالمغرب وقسم عن سيرة المؤلف نفسه في الجزائر على شكل مذكرات وحوادث يوميّة، وقسم يتضمن النّقل من كتب قديمة وبعض عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر وبعض الأسانيد[4].

إنّ رحلة ابن حمادوش تندرج في قائمة المصنفات الهّامة من تراث الجزائر العربي الاسلامي، نظرا لما تحويه من أخبار دقيقة. كان ابن حمادوش إلى حد كبير موضوعيا، إذا

---

[1]– فاتح بالعمري، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرّحلة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ (شعبة المدينة والحياة الحضرية في المغرب الإسلامي، جامعة قسنطينة، 2016.2017م، ص 25.

[2]– عبد الرزاق ابن حمادوش، مصدر سابق، ص 13.14.

[3]– فاتح بالعمري، المرجع السابق، ص 29.

[4]– أبو قاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر2007 م،ص 231.

ما قورن بثلّة العلماء الّذين كتبوا في القرن الثامن عشر ميلادي، كما برع أيضا هذا الطبيب الّرحالة في نظم الشّعر وكتابة المقامات[1].

تفرد ابن حادوش عن معاصريه في تفكيره وكتاباته، وهذا ما تجلى في رحلته "**لسان المقال**" ما جعلنا نختارها من بين أهّم الرحلات العربية التي تحدثت عن الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر، ولايفوتنا في هذا المقام أن نذكر بعض الغربيين الّذين كتبوا عن ابن حمادوش من أمثال ج, كولين ول.كليرك...وغيرها[2].

2 . الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني (1194هـ .1779 م) : هو الإمام العالم العلاّمة شيخ المشاييخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد الحسين بن محمد بن السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف نجل الولي الصالح سيدي علي البكاي البيجائي[3]، رحالة، مؤرخ وفقيه، مال إلى التصوف، ولد ونشأ في قبيلة بني ورثيلان قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية، وأخذ عن والده وغيره. ثم رحل إلى المشرق فحج وأخذ عن العلماء مصر والحجاز كالشيخ محمد بن محمد التونسي الشهير بالبليدي، وأحمد بن حسن الخالدي الجوهري وغيرهما. ثم رجع إلى وطنه[4].

إن تلهف الورثيلاني بالعلم ورغبته في التعمق بالعلم والمعرفة، جعله يقوم بالعديد من الرحلات الداخلية والخارجية، إضافة إلى أنه شخص محب للرحلات والاستطلاع. كانت أغلب زيارته مبرابطية، حيث كان يطمح قي زيارته للعلماء، لتلقي العلم منهم والاستفادة منهم قدر المستطاع، أما زيارته للأضرحة والأولياء، والأموات، فكانت الغاية منها التبرك بهم وأخذ بركاتهم.

[1]– أبو قاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 231.

[2]– فاتح العمري، مرجع سابق، ص 30.

[3]– الحسين بن محمد الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مكتبة الثقافة الدينية،ج1، ط1، القاهرة 2006م، ص01.

[4]– عادل النويهض، مرجع سابق، ص 340.

له "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " يعرف بالرحلة الورثيلانية، وهو وصف لرحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179 هـ وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من علماء والأعيان وغيرهم[1].

أما الهدف الأساسي من هذه الرحلات فوضحه في رحلته فيقول:"ونحن على ذلك من الناوين لأنواع الخير من حج وجهاد، وزيارة وعلم، وإفادة والاستفادة، وأنواع الخيرات على اختلاف أصنافها، وتنوع أجناسها فإن عشنا فعلنا وإن كفتنا تلك النية....[2] فهنا وضح الورثيلاني أن الغاية من رحلاته هو السعي للخير أي كان نوعه وذلك بالدعوة إلى المحافظة عن الدين الإسلامي.

والرحلة الورثيلانية تعد من أهم المصادر التي تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة ومن أبرز الرحلات التي شهدتها الفترة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، لما تضمنته من أخبار والتحصيل العلمي ومقاصد الحج، وخاصة فيما يتعلق الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر فالفترة العثمانية.

3- أبو سالم العياشي

هو عبد الله أبو سالم العياشي المغربي الصوفي المالكي، ولد يوم الخميس من شعبان عام 1073هـ/ 1628م[3] بقرية تازروفت الواقعة في الأطلس الكبير على ضفة روافد نهر زير بجنوب المغرب الأقصى.[4] توفي العياشي يوم الجمعة 18 من ذي القعدة عام 1090هـ/ 1679م متأثرا بمرض الطاعون عن عمر يناهز الثلاثة والخمسين.[5]

---

[1]- عادل النويهض، مرجع سابق، ص 340.

[2]- حسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 640.

[3] - عواطف بن يوسف نواب، مرجع سابق، ص 45.

[4] - محمد بن أبي سالم العياشي، اتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تح: محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، ص 19- 12.

[5] - مولاي بالحميسي، مرجع سابق، ص 17.

أ- التعريف برحلته ماء الموائد:

تعتبر رحلة ماء الموائد من أهم رحلات أبي سالم العياشي التي دوّن فيها وقائع رحلته، والتي دامت حوالي سنتين ونصف، بداية من خروجه من زاويته يوم الخميس ربيع الثاني عام 1072هـ- 1661م إلى حين رجوعه إليها مغرب الأربعاء من شوال عام 1074هـ- 1663م، مضيفا إليها بعضا من أخبار رحلتيه السابقتين.[1]

وتمثلت رحلته كما هو الحال في الرحلات الحجية في سفرين، أولها رحلة الذهاب والثانية رحلة الإياب، وسماها بماء الموائد، وقد طبع جزء من الرحلة العياشية أو ماء الموائد على الحجر في مجلدين سنة 1376هـ- 1998م، وهي منشورة بفاس، وأعيد طبعها بالرباط سنة 1390هـ- 1977م، بدار الغرب وقام محمد حجي بوضع فهارس لها.[2]

ب- أهمية الرحلة:

حضت رحلة أبي سالم العياشي بالكثير من الاهتمام من قبل الباحثين والدارسين، فقد اعتبرت مصدرا لدراسة الظواهر الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية وخاصة خلال الفترة التي غطتها الرحلة من أحداث القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، حتى عهدها بعضهم من أعظم رحلات المغرب العلمية والحجازية.[3]

تميّزت الرحلة العياشية بالتنوع فيما تعرضه من أخبار ومعارف تاريخية الأمصار التي زارها على طول الخط الذي سار فيه إلى الحج، حيث وصف لنا المدن والعمران والطرق والمسالك والأسواق، كما ضمن رحلته بأخبار الأقوام والجماعات البشرية ماضيا وحاضرا فعرض محاسنها ومساوئها، عاداتها وتقاليدها، طقوسها الدينية وطرائق عيشها.[4]

---

[1] – شرف موسى، أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال العلاقات المغربية رحلتي أبي سالم العياشي، وابن الطبيب الشرفي والهلالي نماذجا، وقضايا تاريخية، عدد6، 2017م، ص 27.

[2] – ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص 380.

[3] – عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج 1، ص 362.

[4] – عبد القادر زمامة، "مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى الشرق، مجلة المناهل، عدد 25/ 1982م، ص 87.

كما أنها جادت بمكاسب علمية وأدبية شملت معلومات من المعارف والعلوم كالأشعار والنصوص العلمية الفريدة والنادرة، بالإضافة إلى ذكر بعض المسائل الفقهية والأحاديث التي كان يرويها في مواقف مختلفة، كما جرّد قلمه فيها فعرّف ببعض الأعلام من شيوخه وتلاميذه ممن أسهموا بإثراء معارفه وتزويده بالروايات والأخبار، إلى مناقشة القضايا الشائعة زمن المؤلف.

أما فائدتها الكبرى فهي تأريخها للأحداث المتنوعة حيث قدمت معلومات وجيزة وأخرى مفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية[1]، كل هذه المعلومات قدمها العياشي في أسلوب جديد في فن الكتابة الرحلة ما جعلها بحق دائرة المعارف فريدة من نوعها.[2]

4- ابن زاكور الفاسي

أ- المولد والنشأة:

هو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن زاكور الفاسي أديب ورحالة وشاعر، ولد بفاس سنة 1074هـ على الأرجح.[3] بدأت بشائر نبوغ بن زاكور مبكرا، إذ وجدناه ينظم الشعر الجيد سنة 1092هـ، ويقدم على التأليف سنة 1095، وقد تألف له ذلك بفضل كدّه واجتهاده وحرصه الشديد على أخذ العلم من أفواه أشهر علماء عصره وملازمة حلقات دروسهم والارتواء من مختلف علومهم بشغف منقطع النظير، سواء في فاس أو في تطوان أو في الجزائر.[4]

[1] – أبو سالم العياشي، إتحاف الأخلاء... مصدر سابق، ص 55- 56.

[2] – كراتشوفسكي أغطانيوس بوليا نوفيتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 132.

[3] – مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص 19.

[4] – ابن زاكور الفاسي، نشر أزاهير البستان، مصدر سابق، ص 17.

توفي ابن زاكور الفاسي في 20 محرم 1120هـ/ 1075م بفاس[1]، أما ابن حمادوش فذكر وفاته سنة 1122.[2]

ب- التعريف برحلة أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان:

هي رحلة قصيرة بقيت مجهولة مدة طويلة إلى أن طبعت في الجزائر سنة 1319هـ/ 1902م، وأقدم عبد الوهاب بن منصور على طبعها أيضا بالرباط سنة 1967م، وطبعة الرباط صورة مطابقة لطبعة الجزائر، بدون تحليل أو تعليق أو فهرسة، وقد جاء في المقدمة، وألقت هذه الرحلة الأضواء على التعاون الثقافي بين المغرب الأقصى والأوسط وأضافت حلقة جديدة إلى سلسلة الروابط العديدة التي تشدهما شدا وثيقا.

الرحلة تنقسم إلى قسمين متساويين تقريبا، فالأول خاص بالجزائر وعلمائها وطرق التدريس بها والثاني حديث عن تطوان ومشايخها، وضم هذا الكتاب أشعارا كثيرة في مختلف الفنون.[3]

ج- أهمية الرحلة:

تعتبر رحلة ابن زاكور على صغر حجمها من المصادر المهمة التي غطت فترة من أزهى فترات الجزائر العثمانية[4]، حيث صوّرت لنا تفصيل الحياة العلمية، فالأخبار التي ذكرها لنا في رحلته عن أحوال الجزائر[5] وخاصة علماءها أمثال أبي حفص بن محمد المانجلاتي الجزائري، وأبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، وأبي عبد الله ابن خليفة أصبحت مصدرا لمن أتى بعده كالحفناوي وعادل النويهض وغيرهما.[6]

---

[1] – مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص 19.

[2] – عبد الرزاق بن حمادوش، مصدر سابق، ص 58.

[3] – مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 20.

[4] – مصطفى ضيف محفوظ، ثلاث رحلات مغربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، طبعة خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 41.

[5] – مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 32.

[6] – ابن زاكور الفاسي، مصدر سابق، ص 29.

الفصل الثاني:

بنية المجتمع لمدينة الجزائر

المبحث الأول: التركيبة السكانية

المبحث الثاني: الأوضاع الديموغرافية

إن معرفة صورة المجتمع الجزائري، يجب التطرق إلى التركيبة الاجتماعية، التي منها المدن والأرياف وكذا التطرق إلى النمو الديموغرافي في المجتمع الجزائري.

المبحث الأول: التركيبة الاجتماعية:

لقد كان سكان الجزائر يختلفون حسب معيشتهم، فمنهم من كان يقطن المدن ومنهم الأرياف، وسكان المدن بحد ذاتهم ينقسمون إلى مجموعات، وهذا الأمر ينطبق حتى على سكان الأرياف.

1- سكان المدن:

ينقسم المجتمع الجزائري إلى فئات متعددة وتختلف من فئة إلى أخرى وأهم هذه الفئات، فئة الأتراك والكراغلة وطبقة الحضر، والبرانية والدخلاء.

أ- الطبقة التركية:

تتشكل من الطبقة الحاكمة والجنود الأتراك، اللذين كانوا يستقرون في الحصون والثكنات والحاميات، حيث أن عددهم كان قليل حيث قدر بعشرين ألف نسمة، ويرجع المؤرخون قلة العدد التركي رغم المدة الطويلة التي قضاها الأتراك بالجزائر هو التجائهم إلى استقدام جماعات تركية للعمل في الأوجاق[1]، بالإضافة إلى عدم رغبتهم في الاختلاط مع العنصر العربي وباعتباره عنصر لا يرتقي للعنصر التركي، وكان الأتراك يفضلون العزلة رغبة في المحافظة على امتيازاتهم، وكان أغلب الأتراك يعملون في الجيش والوظائف الإدارية، والاشتغال في الدكاكين، بالإضافة إلى أن معظم الأتراك يفضلون العيش في المدن مثل مدينة الجزائر، تلمسان، لقليعة وغيرها[2].

[1]- أحمد سليماني، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة، الجزائر2007م، ص ص 62 63.

[2]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 94.

ب – فئة الكراغلة:

تكونت فئة الكراغلة[1] من تزاوج الأتراك بنساء البلاد، وقد تواجدت هذه الفئة في المدن الهامّة التي كانت تتمركز بها الحاميات التركية مثل بجاية وتلمسان، وعنابة، ومستغانم، وبسكرة، ومعسكر، وكانت وضعيتهم الاجتماعية متميزة، نظرا لانتسابهم للعنصر التركي المسيطر على البلاد، مما سمح لهم بتقلد وظائف سامية في الجيش والإدارة، وخلال القرن السادس عشر، عمل الكراغلة على قدم المواساة مع العناصر الأخرى المشكلة للأوجاق وأبيح لهم شغل جميع المناصب بما فيها منصب الوالي[2].

ج – فئة الحضر:

تتشكل هذه الطبقة من المجموعات السكانية القاطنة بالمدن، والتي ترجع أصولها للفترة الإسلامية، وتضم هذه الفئة العرب والأمازيغ، وما انضم إليهم من الأندلسيين والأشراف، وقد تميز الحضر بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، وبوضعهم الاجتماعي المميز، واشتهرت هذه الفئة بالصناعة والتجارة، ولم يهتموا بالسياسة رغم نفوذهم الاقتصادي، ولقد لعب الأندلسيين دور بارز في الازدهار الاقتصادي والعمراني والنمو البشري[3].

د– فئة البرانية:

وهم مجموعات سكانية التي هاجرت إلى المدن للعمل، ولا يقيمون بشكل دائم فيها، وقد عرفت المدن نزوحا كبيرا للسكان، وهذه الفئة تتمثل في المزابيون، والبساكرة، والجيجليون، والأغواطيون وغيرهم، واختصت كل فئة بمهام وأعمال تقوم بها تحت إشراف أمين منها يختاره البايلك، وهذا ما جعل البرانية يشكلون عنصر مهما في النشاط الاقتصادي.

---

[1]– كراغلة جمع كرغلي، ويعود اصل هذه الكلمة إلى الكلمة تركية مركبة من كول "عبد، غلام"وأوغلو"إبن"، أي"ابن العبد"، معنى العبودية عائد هنا إلى الأب الإنكشاري الذي كان يعتبر بمثابة عبد السلطان العثماني. أنظر: أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659.1671)، مذكرة لنيل شهادة ماجيستر في تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2007/2008م، ص 87.

[2]– أمين محرز، المرجع السابق، ص87

[3]– ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 97.

1- جماعة بني مزاب[1]:

تنتسب هذه الجماعة إلى وادي ميزاب، وينتسب إليها سكان المنحدر من غرداية وبني يزقن ومليكة وبريان والعاتق والقرارة وبونورة، هي منطقة فقيرة ولا توفر إمكانيات العيش، لذا كانت من المناطق الطاردة، وقد اشتهر أهل الميزاب بما حباهم الله من ذكاء في التجارة ومهارة في المعاملات مع أهل السودان كذلك ما أهلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار الجزائر وتجار السودان[2].

2- البساكرة:

تشكلت هذه الجماعة من سكان الجنوب الشرقي للإيالة، لقد ضمت إلى جانب العنصر البسكري ذاته عناصر أخرى وفدت من مناطق الزيبان، ووادي ريغ، وسوف، وتوقرت[3].

وكان البساكرة يقومون عموما بأعمال وضيعة في المدينة وضواحيها، فقد كانوا سقائين، وحمالين، و"خدمجية" (أي خدام الأجراء)؛ كما عمل البعض منهم أيضا كباعة مجّولين وبّحارة.

3 - الجيجليون:

كانوا بدورهم يشكلون جماعة من جماعات البرانيّة الذين وفدوا من وطن جيجل بشرق الإيالة.

وحظي العنصر الجيجلي بمدينة الجزائر بمكانة خاصة بناء على العلاقة المتميزة التي كانت تربطهم بالأتراك، وقد ذكر فنتور دي بارادي أنهم تمتعوا بنفس امتيازات الأتراك ماعدا الراتب، فهم دون سواهم من العناصر البرانية "لهم (حق) حمل السلاح، ويمكنهم ارتداء

---

[1]- بنو ميزاب أو الميزابيّون، نسبة إلى منطقة ميزاب الصحراوية المشهورة بواحاتها السبع، غرداية، وبني يزقن، وضاية بن داوة، والعاطف، وزلفانة، والقرارة، وبريان. أنظر: أمين محرز، مرجع سابق، ص 92.

[2]- حسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1983م، ص 135.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 100.

الملابس المطّرزة بالذهب، وهو الشيء محرّم على الآخرين ؛ وبإمكانهم التعارك مع الأتراك"[1].

4 – الأغواطيون:

ينتسبون إلى مدينة الأغواط، إلى قبيلتي الزناجرة وأولاد نائل، وأغلبهم يتولى أعمال متواضعة مثل أعمال الوزن والكيل بأسواق الجزائر، وبيع الزيت ويشتغل عدد منهم بالتنظيف ونقل البضائع وغيرها[2].

5– القبائل:

كان أفرادها يأتون من مناطق القريبة من منطقة جرجرة ومدن جزائر والبليدة والمدية وقسنطينة[3]، فكانوا يمارسون أنشطة متنوعة، مثل التجارة، الفلاحة، والبناء. وكذلك الاشتغال بالمهن اليدوية، وهناك من كان يشتغل في القنصليات الأوروبية، وعند الأسر الثرية. وهناك بعض الأفراد انضموا إلى صفوف الإنكشارية، وأصبحوا يشكلون فرق الزواوة[4].

6– المغاربيون:

لقد لعبت عدة عوامل مختلفة في توافد هذه الفئة على المدينة منها العلم والتجارة وكذلك الجوار، بحيث وفد المغاربة من مدن مختلفة: فاس وتيطوان وطرابلس وتازة وتونس، كما أنهم لم يكونوا من المقيمين الدائمين بالمدينة، كما يلاحظ غياب العنصر النسوي بوجه عام[5].

---

[1]– أمين محرز، مرجع سابق، ص 94.

[2]– المرجع نفسه، ص 101.

[3]– ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 101.

[4]– أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519.1830م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الحديث والمعاصر، إشراف عمار بن خروف، جامعة الجزائر، 2005.2006 م، ص 101.

[5]– عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700.1830م، مقاربة اجتماعية اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000م، ص ص 29–31.

هـ – الاعلاج:

الاعلاج وهو لقب أطلق على المسيحيين اللذين أسلموا وأصبحوا يتمتعون بنفس الامتيازات، وكامل حقوق الأتراك بعد كونهم أسرى[1]، وترتب على حضورهم القوي في صفوف الانكشارية، فأصبحوا سادة الغزو البحري وهو مجال نشاطهم المفضل، ففي سنة 1580م حسب ما ذكره هايدوا ضمت طائفة الرياس بين أفرادها إثنا وعشرين علجا، وقد ارتقى العديد من الاعلاج إلى أعلى مناصب السلطة، فلهذا هيمنوا على صفوف القيادة حسب ما قدرته الإحصائيات بأحد عشر قائد من الاعلاج، مقابل ثمانية من الأتراك، واثنين من العرب وواحد من الكراغلة[2].

و – طائفة اليهود:

قدم اليهود الأوائل إلى الجزائر فارين من التطهير العرقي الحاصل في الأندلس بعد سقوط غرناطة، فقد قطعوا البحر بقيادة ويرفات ريباش وقد كانت بدايتهم متواضعة فسمح لهم خير الدين بالمقام مقابل دفع الجزية على ألا يحق لهم فتح إلا عدد محدود من المحلات الحرفية في الأسواق التي يسكنوها، ولم يكن لهم أي أثر في الحياة السياسية خلال القرن السادس عشر[3]. وقد انقسمت جماعة اليهود تبعاً لاختلاف أصول أفرادها إلى فئتين رئيسيتين، هما:

1– اليهود الأهالي:

وهم يهود الجزائر الأصليين، والذين كانوا يمارسون المهن والتجارة البسيطة ويعيشون في مخيمات في نواحي المدينة، ولا يسمح لهم بالسكن خارجها ولا يلبسون ما يحلو لهم من اللباس كما هو الحال مع يهود أوروبا[4].

---

[1]– أحمد بحري، الجزائر في عهد الدايات (دراسة للحياة الاجتماعية إبّان الحقبة العثمانية)، ج2، دارالكفاية، الجزائر، 2013م، ص15.

[2]– أمين محرز، مرجع سابق، ص 89.

[3]– أحمد بحري، مرجع سابق، ص 43.

[4]–المرجع نفسه، ص45.

2- اليهود الأوروبيون:

وهم الوافدون من أوروبا من أصول الإسبان والبرتغال هاجروا من الجزيرة الإبيرية واستقروا ببلاد المغرب بعد صدور قرارات الطرد في كل من الاسبان والبرتغال، وتنضوي هذه الجماعات اليهودية ضمن طائفة كبرى ينتمي إليها يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي طائفة يهود السفرديم[1].

أما النشاطات التي مارسها اليهود بحيث مارسوا التجارة بجميع أنواعها من البيع بالتجوّل إلى التجارة الخارجية مرورا بسمسرة، ولعبوا دوراً هاماّ كوسطاء في بيع الأرقاء والغنائم البحرية[2]، وإلى جانب ذلك احتكر اليهود صيارفة، وصياغة الذهب والفضّة ؛وكان صكّ النقود وتبييضها من بين الأعمال التي كانت مقصورة عليهم[3]، كما مارسوا عدة نشاطات حرفية أخرى مثل الخياطة، الزجاجة، والقزازة، وفتل الحرير، وبوجه خاصّ العطارة حيث وجد سوق العطارين اليهود[4].

و- فئة المسيحيين:

المسيحيون في الجزائر قسمان قسم يمثله قناصل الدول التي تجمعها بالجزائر معاهدات وعائلاتهم وكذا التجار ووكلاء الشركات الأوروبية الكبرى، أما القسم الثاني يمثل الجزء الأكبر منهم فهم الأسرى الذين تحملهم السفن البحرية الجزائرية او يقعون أسرى حين انهزام جيوشهم على أرض الجزائر.

1- الأسرى:

---

[1]- نجوى طوبال، يهود مدينة الجزائر خلال عهد الدايات 1700م .1830 م، من خلال سجلات المحاكم الشرعية، وزارة الثقافة، الجزائر 2009م، ص 62.

[2]- أمين محرز، مرجع سابق، ص 96.

[3]- وليام شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (1816.1824)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م، ص 89.

[4]- عائشة غطاس، مرجع سابق، ص 303.

كان عدد الأسرى بمنتصف القرن 17م أكثر من 36 ألف، هذا العدد سرعان ما تناقص وصولا إلى ألفي أسير في نهاية القرن، والظاهر أن الأمر اختلف إذ أنه بالرجوع إلى مذكرات أحمد الشريف الزهار نجد ان مجموع ما غنم أحمد قباطنة البحر هو 24ألفاً[1]. أما وليام فقد أورد جدولا مفصلا في سنوات مختلفة توضح لنا تطور عدد الأسرى سلبا يقول:"تمكن البحارة الجزائريون من أسر الآلاف من الرجال والنساء والأطفال فمن 1556م أسر الجزائريون 28مركبا في مالفا و50 أمام جبل طارق. وعلى الرغم الحالة التي صور بها كثير من المؤلفين معاناة هؤلاء الأسرى المسيحبين تحت ظلم وقطاعة النخاسة في الجزائر إلا أن الوقائع التاريخية تؤكد عكس ما قيل فقد أورد القنصل شالر أن الأفراد ألقيت من ستينات من القرن 17م، وأن الأسرى بعد هذا التاريخ كانوا يعتبرون عبيدا للدولة وأنه حتى قبل هذا التاريخ كانت سلطات الإيالة تحميهم من الأذى ومن معاملة الأفراد، وأن حالتهم لم تكن أسوأ من حالة أسرى الحرب الذين يقعون في يد إحدى الدول المتحضرة على حد قوله:"أن النساء الأسيرات كنّ يعاملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن..." [2].

وإذا كان كاتكارت يصف معاناة الأسرى في السجون وسوء المعاملة بعض لهم فإن ذلك لا يعدو حدود طبيعة، وأما حالة اليأس والقنوط التي تصيب بعضهم فقد دفع إلى حافة الانتحار كما يقول، فمردها إلى حب النفس البشرية للحرية وإلى تنامي روحهم وعزوف ملوكهم عن دفع فديتهم كما يقول شالر"وأشد أنواع البؤس والشقاء الذي يعاني منه العبيد المسيحيون في الجزائر هو يرود حكومة بلده وجبنها إزاء حالتهم، بحيث أنها تحرمهم حتى من الأمل في الفدية يوما ما[3].

وعما أشيع حول أسواق النخاسة والقطائع التي تحدث بها وتحدث ضجة كبيرة في العالم اتهامات لا أساس لها من الصحة، فهم (...لم يكونوا مطالبين بأشغال مفرطة وإذا وجد أحدهم من يضمن عدم هروبه فإنه يسمح له بالخروج بحرية وممارسة أي عمل يصل أحيانا إلى مناصب عليا تدر عليه أرباحا طائلة مما جعلهم يغادرون الجزائر الكثيرين منهم مقعمة

[1]– أحمد بحري، مرجع سابق، ص 48–49.

[2]– وليام شالر، مصدر سابق، ص 99.

[3]– المصدر نفسه،ص101.

بالأسى والحسرة، ويأخذون معهم بعد دفع فديتهم أو مبادلتهم جزائريين كل المال الذي يجمعون أثناء عملهم بالجزائر، وإن حدث ووقع أحدهم أو بعض المعاملة السيئة من حارسه فإن ذلك لا يخرج عن القانون الكوني العام الذي وضع الأسر والعبودية[1] وهذا دليل على تسامح الجزائر كدولة والإسلام كدين لا يفرق فيما بينهم ويجعلهم سواء بصرف النظر عن أصولهم العرقية، فقد كان الرياس من أجناس مختلفة وكان شرط قبولهم في سلك البحرية هو اعتناق الإسلام وكان يطلق عليهم اسم العلوج أو الأعلاج[2].

2- القناصل والتجار: يمثل القناصل والتجار جل المسحيين غير الأسرى وهم في الغالب أقلية، فالتجارة لم تكن بأحجام كبيرة ولم يترك اليهود اي مجال لها غيرهم، وفي قطاع يمكن ان يدر أرباحا، وذلك لم يمنع وجود تجمعات مسيحية بالمدن الساحلية التي كانت تتعامل عن طريق موانئها مع التجار الأجانب، وشكّل هؤلاء الوكلاء والقناصل مجتمعا خاصا بهم، عاش في كنف التسامح الإسلامي حياة بذخ جعل شالر يعلق عليه قائلا: (وإذا شاء القدر ودعتني لشغل منصب غير المنصب الذي أشغله حاليا في الجزائر، فسأحزن مدى الحياة لفقد ما أجده من لطف الكرم وسحر العشرة الطبيعية)[3].

ويمكن اعتبار رجال الدين جزءا من هذه المجموعة إذ هم مسؤولون عن إعادة شراء الأسرى وافتدائهم وهو واحد من أهم النشاطات التجارية آنذاك[4].

ي - الزنوج:

إن أغلبية الزنوج الذين يعيشون في المدن الجزائرية هم عبارة عن أقليات جلبت إلى الجزائر مثلهم مثل الأتراك والعبيد والمسيحيين إلا أنهم يتميزون عنهم بأنّ هذه الأقلية لم تكن مشكلة مثلهم من العزاب بل عدد النساء الزنجيات كان يفوق عدد الذكور[5]، ولذا كان يجلب الزنوج في أغلب الأحيان من السودان أو ضفاف نهر النيجر من أجل العمل في المنازل

[1]- وليام شالر، مصدر سابق،ص 99.

[2]- أحمد بحري، مرجع سابق، ص 53.

[3]- وليام شالر، المصدر السابق، ص106.

[4]- أحمد بحري، المرجع السابق، 54.

[5]- المرجع نفسه، ص 40.

وبلغ عددهم في نهاية القرن الثامن عشر مابين 200. 3500 نسمة بمدينة الجزائر[1] ويذكر شالر أن وضعهم لم يكن يشبه وضع العبيد في أوروبا والغرب وهو أقرب إلى الخدمة مقابل الرعاية أكثر منه عبودية وكتب بخصوصهم "الزنوج يشكلون جزء أخر من السكان ولو أنه صغير فهؤلاء في الأصل من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخل القارة أو من طرابلس...إلى العبودية"[2].

وقال عنهم حمدان خوجة في كتابه المرآة بخصوص هذا الجانب "إنهم ينقسمون إلى طبقتين أو على الأصح إلى نوعين متميزين من السكان فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون أصلهم من الشرق وينحدرون من القبائل العربية أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو القبائل الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب"[3].

وتعتبر القصابة أهم وضيفة يمارسها هؤلاء الزنوج وذلك في قصابات أسيادهم القدامى، وأما وقت فراغهم فيقضونه في الترفيه عن أنفسهم بالاستماع إلى موسيقى التي ما تزال مشهورة إلى يومنا هذا لدى سكان الصحراء الجزائرية والمعروفة بفرق (قرقابوا)، حيث يطوف مجموعة من الزنوج يحملون طبولهم وقطعا حديدية يقرعونها محدثين أصواتا إيقاعية بالأحياء فيدخلون عليها نوعا من البهجة والترفيه ويكسرون بذلك روتينها مقابل قطع نقدية تتساقط عليهم مكافأة على صنيعهم هذا[4].

2- سكان الأرياف:

كان سكان الأرياف ينقسمون إلى عنصرين أساسيين هما العرب والأمازيغ، الذين كانوا يعيشون وفقا لتنظيماتهم الموروثة، والتي طبعت بطابع الإسلام، مما كان يوحد بينهما من النّاحية الدّينيّة، وكانت كل مجموعة قائمة على أساس قبلي أو لغوي، خاضعة لزعاماتها الرّوحية (المرابطين) أوالدّنيوية (الاجواد).

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص107.

[2]- وليام شالر، مصدر سابق، ص 92.

[3]- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تح: الزبيري محمد العربي، الجزائر 2005م، ص 15.

[4]- أحمد البحري، مرجع سابق، ص 42.

1- قبائل المخزن: هي مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار وهي تعود في أصولها إلى نسب واحد أو أصل مشترك بل هي في واقع الأمر تجمعات سكانية تعميريّة ذات تكوين اصطناعي فمنهم العبيد والكراغلة وعرب الصحراء وسكان الهضاب والجبال، هذا وتشّكل قبائل المخزن نظرا لارتباط مصالحها بالبايلك حلقة وصل بين الأهالي في الأرياف والحكّام في المدن بل أنّها أصبحت في أواخر العهد العثماني تؤلف رابطة متينة تشدّ المحكوم على الحاكم وتبقى على تماسك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الريف[1].

2- قبائل الرعيّة: تتألف فبائل الرعية من مجموعات السكّانية الخاضعة مباشرة للبايلك والمقيمة بالدّوار والدشر والقرى والمنتشرة في الجهات التي تراقبها قبائل المخزن وتعبرها فرق الحاميات التركية المتوجهة لجمع الضرائب أو الملتحقة بمراكز الحاميات[2].

تمثل قبائل الرعية قاعدة الهرم الاجتماعي في الجزائر العثمانية وبالتالي فهي قبائل الخاضعة لجميع المطالب المخزنية والفروض الضريبية، ولقد عاش أفراد هذه الطبقة فروقا طبقية كبيرة ففي الوقت الذي يقوم به على أكتافهم كل الجهد الفلاحي فإنهم لا ينعمون إلا بالنزر اليسير الذي يعادل خمس الإنتاج فقط[3].

وقد تعرضت قبائل الرعية للاضطهاد والإكراه والقسر والاستغلال المستمر من طرف رجال البايليك وفرسان المخزن، فاستخلصت منها الضرائب الثقيلة وأرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة، ومنع عنها الاتصال بالقبائل المعادية للبايلك او الممتنعة عن نفوذه[4].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 106.

[2]- المرجع نفسه، ص107.

[3]- أحمد البحري، مرجع سابق، ص 73.

[4]- ناصر الدين السعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 107.

3- المجموعات السكّانية المتحالفة(الأحلاف): تتعامل مع البايليك عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الذين أصبحوا بحكم العادة والعرف يتوارثون حكمها، معتمدين في ذلك على نفوذهم الديني أو كفاءتهم الحربية أو أصالة نسبهم، وقد غلب على هذه العائلات التي تولت حكم المجموعات القبلية المتحالفة، الطابع الروحي في غرب البلاد "عائلات مرابطين" والطابع الحربي في شرق البلاد وجنوب التيطري "الأجناد". بينما العائلات التي تولت زعامة هذه المجموعات البلية الحليفة بمناطق جرجرة والبابور والصومام اعتمدت في فرض زعامتها على أصولها العريقة "الأشراف" أو امتثالها لرأي الجماعة "الخروبة"[1].

وممّا يلاحظ أن البايلك حاول ربط هذه المشيخات القوية بالسّلطة وإخضاعها لتصرف الحكّام، وذلك بالالتجاء إلى عدة وسائل منها:

أ- التّقرب إلى شيوخها ومرابطيها وذوي الرأي منها بإسقاط المطاالب المخزنية وتقديم الهدايا وإصدار فرمانات التّولية، مقابل خدمات محددة مثل:تأمين الطّرق وجمع الضّرائب من الدّواوير والدّشر التابعة لهم، وبهذا أصبح هؤلاء الشيوخ والزّعماء المحلّيين واسطة بين الأهالي البعيدين عن سلطة البايلك وبين رجال البايلك، وأداة طيعة يستخدمها الحكام في بسط نفوذهم غير المباشر على المجموعات القبلية التي يصعب إخضاعها.

ب- خلق تنافس وتناحر بين الأحلاف القبلية الكبرى، وذلك بتشجيع الصراع العشائري المعتمد على مبدأ الصف ونزعة التّعصب القبليّة[2].

4- المجموعات السكانية الممتنعة عن بايلك: تتعامل مع البايلك عن طريق شيوخها وزعمائها المحليين الّذين أصبحوا بحكم العادة والعرف يتوارثون حكمها، معتمدين في ذلك على نفوذهم الدّيني أو كفاءتهم الحربية أو أصالة نسبهم، وقد غلب على هذه العائلات التي تولت حكم المجموعات القبيلة المتحالفة وكانت تسمى هذه العائلات بالمرابطين[3].

[1]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص109.

[2]- المرجع نفسه، ص 109.

[3]- نفسه، ص 109.

والمرابط تعني الالتزام والتّعهد، أي أن المرابطة يعاهد الله على ألّا ينصرف إلاّ لما فيه خيرا للإنسانية، وذلك حتى بعد موتهم[1]. وقد كانت قوة هؤلاء ورجال الطرق تكمن في استعمالهم الدّين وكان الجميع يخشاهم من الأفراد العاديين إلى رجال السّلطة من الأتراك، بحيث أن السّلطة التّركية كانت تستعين بهذه المجموعات في نقل الأموال براً عبر الطرقات غير الآمنة نظرا لقوتهم.

تتألف في أغلبها من القبائل التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة كالبابور، وجرجرة والونشريس وطراودة وشمال قسنطينة والأوراس، أو التي كانت تجوب جهات الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي (أولاد نايل والقصور) وتخوم الصحراء، وقد قدر الفرنسيين عددها 1830، ب320.000 نسمة من مجموع السكّان الإجمالي البالغ حسب هذا الإحصاء 780.000 نسمة[2].

المبحث الثاني: الأوضاع الديموغرافية:

1-النمو الديموغرافي:

تعد عملية تعداد السكان الجزائر عبر مختلف مراحل الحكم العثماني من القضايا الشائكة والمعقدة نظرا لعدم وفرة المعلومات والبيانات الرسمية ولهذا فإن الإحصاءات التي وردت في مختلف المصادر تعتبر جزئية ولا تعكس بصدق العدد الإجمالي لسكان الجزائر[3] وتنقصها الدقة في بعض الأحيان.و عرفت مدينة الجزائر في مطلع القرن السادس عشر ميلادي نموا ديموغرافيا بسبب هجرة الأندلسيين وتوافد اليهود والأتراك وجلب عدد كبير من الأسرى حيث بلغ عددهم 30ألف نسمة وبعد التعرف على التركيبة السكانية لمدينة الجزائر

[1]- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تح: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006م، ص19.

[2]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 109 . 110.

[3]- أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 74.

سنحاول في هذا القسم تقديم بعض الإحصاءات التي وردت في مختلف المصادر عن طريق التعرف على الحالة المعيشية والصحية التي كانت انعكاسا صادقا للوضع الديمغرافي[1].

لذا فدراسة النمو السكاني يعتمد بالدرجة الأولى على الإحصائيات التي تعد أساس البحث والمناقشة وهي قليلة في العهد العثماني[2]؛ في حين توجد عدة تقديرات تقريبيّة وردت إمّا في الملاحظات والشهادات التي دوّنها في الغالب أسرى مسيحيّون، وإمّا في المذكّرات التي كتبها قساوسة وقناصل أوروبيون عاشوا فترةً من الزمن بمدينة الجزائر[3].

فالوضع الديموغرافي في الجزائر العثمانية مر بمرحلتين: مرحلة النمو السريع، وتبدأ هذه المرحلة من عهد دخول الأتراك أي من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر وهذا بفضل الهجرات، كهجرة الأندلسيين، اليهود، الأتراك...إذ كانت من العوامل التي ساهمت في زيادة عدد سكان الجزائر.

أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة التقهقر والاضمحلال تبدأ من مطلع القرن 18 إلى مطلع عهد الاحتلال الفرنسي للمدينة وهي مرحلة حرجة لأن عدد سكان مدينة الجزائر أخذ سير إلى الاضمحلال أو إلى الاتجاه السالب، بسبب الأوبئة والمجاعات، والكوارث الطبيعية التي تعرضت لها الجزائر وقد تسبب في خسائر مادية جسيمة[4].

2- العوامل المؤثرة على النمو الديموغرافي:

1- الأوبئة:

يعود سبب الحالة الصحيّة في الجزائر إلى انتقال العدوى وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة، وذلك لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان

---

[1]- فاطمة مراح وسمية حازم، الأوضاع السياسية والاجتماعية جزائر أواخر العهد العثماني 1766.1830م، مذكرة لنيل شهادة ماستر في تاريخ حديث ومعاصر، جامعة خميس مليانة، 2016.2017م، ص 102.

[2]- حليمي، علي عبد القادر، مدينة الجزائر: نشأتها وتطوّرها قبل 1830، ط1، المطبعة العربيّة، الجزائر 1972م، ص250.

[3]- أمين محرز، مرجع سابق، ص 100.

[4]- حليمي علي عبد القادر، مرجع سابق، ص 252.

وعلاقتها بالبلاد الأوروبية، وارتباطها بالمشرق العربي وأخطر الأمراض التي انتقلت إلى الجزائر **الجدري، الديفتيريا، الطاعون**[1].

وكانت هذه الأوبئة تنتقل إلى الجزائر من طرف الحجاج والجنود المجندين والتجار القادمين من الشرق وهذا ما يؤكده الزهار حيث يقول:"عندما بلغت المراكب المهداة من اسطنبول جاء معها الوباء إلى الجزائر..."[2]. وأن وقوع الوباء سببه في الغالب بكثرة العمران ما يخالطه من العنف والرطوبات الفاسدة ولهذا فإن الموت بهذا الوباء يكون في المدن أكثر منه في الريف. بحيث كان الوباء يتسرب إلى الجزائر عن طريق البحر في غالب الأحيان لذا نجد أن أول من كان يصاب به هم عمال الموانئ، وبعد ذلك يتسرب إلى بقية أنحاء البلاد فكان يتنقل بين الناس[3]. ففي القرن 17عرفت الجزائر وباء حاد وهو معروف بـ:"**الطاعون الكبير**"وقع سنة 1654 فقد أود بثلث السكان، وبعد ذلك بثماني سنوات 1662 مات منه عشرات الآلاف وهو معروف أيضا بالكونية[4].

2- المجاعات:

كان الجفاف أحد الأسباب الأساسية التي تحكمت في قلة الإنتاج الزراعي وساهمت بالتالي في ظهور المجاعات؛ إذ غالباً ما أدى النقص الشديد في الأمطار إلى جدب الأرض وهلاك عدد كبير من الماشية. وممّا زاد الطين بلّة أن الجفاف كثيراً ما كان مصحوباً بآفات أخرى كغزو الجراد أو الطاعون[5]. فمن المجاعات التي عرفتها بلاد الجزائرية فنذكر منها مجاعة عامي 1580.1579 فقد ذكرت بعض المصادر أن الناس كانوا يموتون من جرائها

[1]- ناصر الدين سعيدون، مرجع سابق، ص

[2]- أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 297.

[3]- المرجع نفسه، ص298.

[4]- أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف 1168هـ جزائر هـ/1830.1754م، نشر وتحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974م، ص 51.

[5]- أمين محرز، مرجع سابق، ص 105.

بأعداد لا تحصى، فقد قدر أعداد ضحايا هذه المجاعة في الجزائر وحدها بلغ 5656 شخصا[1].

وكذلك مجاعة 1752 التي استمرت أربع سنوات وذهب ضحيتها 700 شخص في مدينة الجزائر، فقد أدّت هذه المجاعة إلى ضعف في الإنتاج وغلاء المعيشة وأضرت بالنشاط البحري والتبادل التجاري. كما نذكر من المجاعات مجاعة 1778 و1779 تميزت بوطأتها على الناس، فكانوا يموتون من جرائها جوعا، وهذه المجاعة تسبب فيها الجراد ومصاحبها من الوباء[2].

كما وقعت مجاعة هائلة بأهل قسنطينة ووطنها، فارتفع سعر الحبوب وسميت تلك المجاعة بعام "**ترامو**"وذلك الاسم كناية على الشهر ويدل على شدة القحط وغلاء الأسعار[3]. وكان لهذه المجاعة المنتشرة في البلاد آثار سيئة التي أحلت البلاد وأفنت العباد حيث يقال: "فما نزلنا منزلا لا وجدنا أهله يدفنون موتاهم"[4]. وحسب أحمد بن الهطال أن طرد المجاعات تكون باختزان وإدخار الحبوب وقت حصادها تفاديا لانقطاع المؤونة وحدوث القحط الذي هلك كثير من الناس[5].

وهذه السلسلة من المجاعات لعبت دوراً بيّنًا في تردي الأحوال الصحيّة، وهيأت بذلك الأرضية لاشتداد وطأة الأوبئة التي غالباً ما كانت تصاحبها[6].

3- الزلازل:

[1]- حنان سلمي، الوضع الديمغرافي في الجزائر العثمانية وانعكاساته في القرنين (13.10هـ .17.16)، مذكرة لنيل شهادة ماستر في تاريخ الجزائر الحديث، جامعة المسيلة، 2018.2019م، ص 30.

[2]- حنان سلمي، مرجع سابق، ص 30.

[3]- محمد صالح ابن العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 45.

[4]- مولاي بالحميسي، مرجع سابق، ص 40.

[5]- حنان سلمي، مرجع سابق، ص 31.

[6]- أمين محرز، مرجع سابق، ص 106.

عرفت البلاد أثناء العهد العثماني سلسلة من الهزات الأرضيّة العنيفة التي ترتب عنها خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وتسبّبت في الكثير من الأحيان في تخريب بعض المدن، مثل: زلزال عام 1586 بالجزائر، وكذا زلزال عام 1632 الذي ذكرت بعض الولايات أنّه أهلك عدداً كبيراً من وسكان المدينة، و"كان من الشدّة بحيث أطاح بمنازل المدية. وقد دمرت دلس سنة قبل ذلك بنفس الطريقة"[1]. وحدثت هزّة أرضيّة أخرى بالجزائر في سنة 1639. وخلال ربيع عام 1662، حطّمت عدّة هزّات أرضيّة وعواصف عنيفة برج المول، فغرقت إحدى عشرة سفينة وتسع غنائم بالميناء؛ ولم يمرّ زمن طويل حتى رجّت الأرض، في سنة 1665، وصاحب ذلك كسوف الشمس. وكان زلزال عام 1676 هو الأخطر أنّه دام عدّة شهور، من شهر فبراير إلى شهر جوان ؛ وأدى إلى تصرّر (Comelin) حيث ذكر كوملان أغلب ديار مدينة الجزائر، وحدثت على إثر ذلك أعمال نهب، فنقّم السكّان على الداي محمد التريكي واتهموه بسوء الطالع[2].

وكان من أعنف الزلازل التي ضربت الجزائر، زلازل عام 1716 الذي هزّ المدينة في أوائل شهر فبراير. وقد خرّب نحو ثلث المباني، وأدى بحياة مالا يقلّ عن عشرين ألف نسمة ؛ وأجبر الأحياء على الفرار من المدينة والمكث في الأرياف القريبة تحت الخيم[3].

وهناك عوامل أخرى أيضا أدت إلى انخفاض وتناقص عدد السكان كالاضطرابات الداخلية التي نشبت في مطلع القرن 19 ونعني بذلك اضطرابات عام 1805 التي نشبت بين اليهود والإنكشارية هاجر على إثرها 100 أسرة يهودية إلى تونس[4]. وكانت الحملات التي تشنها الدّول الأوروبية ضد الجزائر من حين لأخر من أحد العوامل الخارجية التي أدت إلى تناقص عدد سكان الجزائر ونذكر من هذه الحملات الحملة الإنجليزية والهولندية 1816 التي راح ضحيتها عدد كبير من الأهالي. ولقد كان لتناقص السكان آثار سلبية على الأوضاع الاقتصادية إذ أصبحت مختلف الاقطاعات تعاني من قلة الأيدي العاملة وقد أدى

---

[1]– المرجع نفسه، ص 107.

[2]– نفسه، ص 107.

[3]– عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص 254–255.

[4]– ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مرجع سابق، ص 41.

هذا الوضع إلى انخفاض الإنتاج الزراعي والصناعي مما تسبب في ارتفاع الأسعار وحدوث مجاعات وأوبئة[1].

وبالتالي فإن النمو السكاني كان سريعا كنتيجة طبيعية لانتعاش الحياة الاجتماعية باستثناء بعض الفترات التي شهدت تدهور الأوضاع المعيشية والصحية بسبب انتشار الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية مثل: الزلازل والجراد والمجاعات التي كانت سبب في خسائر مادية وبشرية.

[1]– أرزقي شويتام، مرجع سابق، ص 86.

الفصل الثالث:

مظاهر الحياة الاجتماعية في الجزائر

المبحث الأول: العادات والتقاليد

المبحث الثاني: الطعام واللباس

المبحث الثالث: الصحة

تميزت الحياة الاجتماعية لسكان الجزائر في العهد العثماني بطابع خاص من حيث طريقة العيش التي ميزت المجتمع وطغت عليه بعاداتها وتقاليدها، والتي تجسدت في الحفلات دينية والاجتماعية وكذلك نوع الطعام واللباس إضافة إلى الصحة، التي ميزت المجتمع الجزائري عن المجتمعات الأخرى.

المبحث الأول: العادات والتقاليد:

إن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري تحددها ضوابط الشريعة الإسلامية، فأغلب عادات التي يمارسها الجزائريون تستند أساسها إلى قوانين، وهم من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والغيورين عليه، وفيما يلي سنتعرف على عادات وتقاليد سكان الجزائر والتي سنقسمها إلى:

أ- الاحتفالات الدينية:

1- الأعياد: مع نهاية شهر رمضان، وعند رؤية هلال العيد ينقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر رمضان وحلول العيد[1]، وكان من عاداتهم صبيحة يوم العيد، أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم ولا يخرج أحد بغير سلاح صغيرا كان أو كبيرا[2].

فمثلا في عيد الفطر المبارك وفي صبيحة اليوم الأول يذهب الناس لإلقاء السلام والتهنئة إلى الأفندي الأكبر أو الداي بحيث يتناولون الغذاء، وكذلك القيام بالمبارزة بين بعضهم البعض بعد الصلاة، بحيث تكون المبارزة مصحوبة بأنغام موسيقى الانكشارية، إما مكان المبارزة يكون مغطى بالرمل بحيث يدخل المصارعون عراة إلا من سراويل قصيرة من جلد والفائز في المبارزة يتحصل على جائزة، وبجانب هذه المبارزة يتسلى الشعب أيام العيد بكل أنواع الألعاب[3].

---

[1]- ج.او.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.او.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ/1732م، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس 2008م، ص48.

[2]- أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية في الديار النورانية، ج2، تحقيق:أحمد فريدي المزيدي، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ص523.

[3]- هابنسترايت، المصدر السابق، ص 49.

2- إحياء ليلة نصف من شعبان: وهي ليلة الفاضلة، التي يفرق فيها كل أمر حكيم وتقدر فيها الأرزاق بحيث يقوموا الناس بدعاء الله عزّ وجل سائلين منه الخيرات، وأن يدفع عنهم المضرات دينا ودني ومما ورد في فضلها ما روى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {أربع ليال يسح الله فيها الخير سحا ليلة الفطر، وليلة القدر، وليلة الجمعة، وليلة نصف من شعبان}[1].

3- إحياء ليلة القدر: يصور ابن حمادوش عادة أهل الجزائر في الاحتفال بليلة القدر، وعادة متولى جامع الكبير يفرغ قنطارا أو أكثر من الشمع ويفرقه على ثلاثين شمعة خضراء مابين أرطال إلى أربعة في كل واحدة، وبعد ذلك يحملونها إلى دار المفتي أو الوكيل أيهم يحب الظهور، فإذا صلى العصر أخرج المؤذنون أو غيرهم الشموع في أيديهم ويطوفوا بهم البلاد...ويرفعون أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وحتى إذا دخلوا المسجد...وركوبهم في حسك من العود[2]....ويحيون الليل كله إلى الفجر... وبعد صلاة الصبح، يقرأ الإمام من الباب ونضع موازين القسط يوم القيامة إلى آخر الختم...ثم يسبحون سبحان الله بحمده سبحان الله العظيم مئة مرة وفي هذه المدة يرشون ماء الورد، حتى يعم الناس فيها ويشرع الإمام في الدعاء[3].

ويقول ابن حمادوش في شأن هذا الفعل، بأنه عادة الجزائر ومن يسكنها من المسلمين، ثم يذهبون إلى خارج المدينة نحو قبر سيدي عبد الرحمان الثعالبي، ويحضرون ختم البخاري أيضا على هذه الصفة وبعد ذلك يتهيئون للعيد، فقد حضر هو بنفسه في كلا الموضعين مع المسلمين[4].

---

[1]- أبو عباس أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2011م، ص728.

[2]- حسك:هي الشمعدان التي توضع فيها الشموع

[3]- ابن حمادوش، مصدر سابق، ص 125-126.

[4]-المصدر نفسه 126.

4- الحج: باعتبار أن الجزائريين من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهم يقومون بالحج إلى مكة المكرمة وبعد أداء هذه الفريضة يرتدون الملابس الخضراء التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

ب- الاحتفالات الاجتماعية:

1- الزواج: كان الشرط الأول أن لا يسبق أن رأى أحد العروسين الأخر، وبعد التأكد من هذا يتفق الشاب مع الشخص الذي سيصبح صهرا له على المبلغ الذي سيدفعه له مقابل تزويجه بابنته، وبعد الاتفاق الذي يكون حسب إمكانياتهم، يذهبون مع بعض الأصدقاء إلى القاضي وتقرأ الفاتحة، وبعدها يتفقون عل موعد العرس، ولنا أن نذكر في هذا المقام ما سجله وليام شالر، الذي قال إن تخطيط الزواج يجري بواسطة الأمهات والعلاقات النسوية التي تسعى بين الطرفين، ونساء الجزائر يلتقين إما في الزيارات متبادلة في المنازل أو في الحمامات العمومية[2]، في هذه المناسبة، يتم وضع بدايات الأولى للزواج واختيار الفتاة المناسبة لمن يرغب في الزواج.

2- **الختان:** فنجد في شأن ختان الأطفال، فكانت بعض الأسر تقيم ولائم وأعراس سبعة أيام في الغالب، إلا أن ابن حمادوش في رحلته، حينما ختن ابنه لم يقيم وليمة ولا عرسا، حيث قال "في يوم الجمعة لقيت حجاما فأخذته إلى داري، وظننت أن ابني لا يعرفه، فدخلت الدّار وقلت له أصعد مع عمك إلى العلوي ففرّ إلى خارج الباب فأتعبته أنا والحجام ولم يعلم أهل المنزل ما هو الأمر، فقبضته وأتيت به إلى العلوي وأمسكته فطهره وكان ختانا لم يعلم به أحد، وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس... [3].

ووجدنا فيما ذكره أحمد شريف الزهار في مصدره مذكرات أن مصطفى باشا حينما ختن ولديه أقام مهرجانا كبيرا بإزاء بستانه بعين الربط، ونصب وطاقات والأخبية وأخرج الطباخين من القصر وأضاف إليهم آخرون...، وجمع كل الآلات من الترك والعرب وجعل كل صنف وحده...واختلفوا في نفائس الأطعمة والإكثار منها وكانوا يطعمون كافة النّاس

[1]- ج.أو.هابنسترايت، مصدر سابق، ص 47.

[2]- وليام شالر، مصدر سابق، ص 87.

[3]- ابن حمادوش، مصدر سابق، ص118.

ثلاث مرات في كل يوم والقهوة في كل وقت، وكانت المدافع تضرب كل يوم من جميع الحصون وأصحاب الخيل يتسابقون... [1]. كما قال أن النوبة (موسيقى) تضرب صباحا ومساءا...، وأصحاب الآلات يطوفون على من في الأخبية والوطاقات طائفة بعد طائفة...واستمرت هذه الوليمة سبعة أيام، هذا حفل ختان الأثرياء، ومن الرّاجح أن حفل ختان في الطبقات متوسطة يكون أقل بكثير مما ذكره أحمد شريف الزهار.

3- الكرم: هو من أهم مظاهر وصفات متأصلة في المجتمع الجزائري في حضرها وبدوها، عادة إكرام الضيوف وتقديم يد العون لهم بما يحتاجونه خصوصا الحجاج منهم، كما ذكر الزياني في رحلته[2]، والوزان قبله والذي نزل عند السفير الذي ذهب إلى الأندلس على حد ذكره[3]، وبنفس الأمر ينطبق مع أبي راس الناصر في رحلته، حيث نزل هو الأخر ضيفا عند بعض علماء المدينة حينها (محمد بن مالك، محمد بن جعدون، وأحمد بن عمار) [4].

وكذا لك قد أشاد التمقروتي بكرم المجتمع الجزائري، عندما وصل إلى مدينة بجاية ووصفها نقلا عن البلوي[5]، الذي لقي ترحيبا وكرما من أحد علماء المدينة بقوله"فأول مالقيته من أرباب المحابر والركاب أعواد الكراسي والمنابر، فاضل الأفاضل، وكبير الأكابر، شيخ العالم المحدث: أبو عبد الله محمد بن جعفر رحمه الله...فأنزلني بمنزله الكريم وقابلني بالترفيع والتكريم...[6].

---

[1]- أحمد شريف الزهار، مصدر سابق، ص82.

[2]- بوقاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الجيلالي، مكتبة الفضالة، المغرب، 1967م، ص151.

[3]- حسن الوزان، مصدر سابق، ص 39.

[4]- أبو راس النّاصر، فتح الإله ومنّته فيي التحدّث بفضل ربّي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق عبد الكريم الجزائري، م، و، ك، ت، الجزائر، 1990م، ص 91-98.

[5]- هو أبوالبقاء بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي من أسرة البلويين الشهيرة في الأندلس، استند عليه التمقروتي عليه في رحلته.

[6]- أبي حسن بن أبي عبدالله محمد التمقروتي، النفحة المسكيّة في السفارة التركية، تقديم وتعليق سليمان الصيد المحامي، ط1، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتوزيع، تونس، 1998م، ص ص45-46.

كما ذكر العياشي كرم أهل تقرت الذين كانوا يترددون عليهم باستمرار لتزويدهم بما يحتاجونه من مأكل، وقد وصفهم بالتواضع وحسن الخلق فيقول "وهم من أهل يتسمون بالتواضع والنية الصالحة والأخلاق الحسنة[1]".

وما يقال عن أهل المدية يقال عن سكان تقرت اللذين يحبون الغرباء ويرحبون بهم، ويستضيفونهم في بيوتهم بالمجان، ويفضلون أن يزوجوا بناتهم للغرباء من أن يزوجوهن من أهل البلاد ومن عاداتهم أن يمنحوهن مهرا مكونا من عقارات كما هو الشأن في أوروبا، ويقدمون أيضا هدايا هامة إلى الغرباء، ولو كانوا يضنون أنّهم لن يعودوا إليهم أبدا، وذلك لفرط كرمهم[2].

4. الجنائز: من المسلّمات التي فرضها الله تعالى على خلقه الموت، ولما للميت من حق في إكرامه بعد موته، وجب على أهله إقامة جنازة ومراسيم للدفن، وهذه الأخيرة اختلفت من مجتمع لأخر.

حيث أشار أبو سالم العياشي إلى حالة عجيبة، والتي أثارت استغرابه في مدينة ورقلة، مشهد الثياب الملقاة أمام الباب المدينة حيث يقول:"وفي باب المدينة التي نزلنا من قبله خرق كثيرة من الصوف والكتان أكثرها صحيحة لا قطع فيها تصلح للانتفاع وليس مثلها مما يرمى به في العادة، ويستغرب العياشي من اللذين قاموا برميها كونها لا تزال صالحة للاستعمال وكثيرة العدد، إلى أن سمع خبرا يفيد بأن تلك الثياب أنها ترجع للموتى، وأن هذه العادة متوارثة عند أهل البلد بحيث:"أن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس"[3].

وهناك عادات أخرى نذكر: عادة قراءة صحيح البخاري في الجامع الكبير وهذه العادة يذكرها ابن حمادوش عدة مرات في رحلته[4].

---

[1]– أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية،ج1، مصدر سابق ص120.

[2]– حسن الوزان، مصدر سابق، ص ص 135–136.

[3]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 118.

[4]– عبد الرزاق ابن حمادوش، مصدر سابق، ص 118.

وأشار الوزان إلى عادة غريبة وطريقة تحدث في جبال قسنطينة تخص النساء، حيث قال "...ومن عادات النساء جبال قسنطينة الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن، وتترك المرأة الهاربة أولادها، وربما اتخذت زوجا أخر في الجبل الذي تقصده إذا كان عدواً لجبل زوجها، وكذلك ما يسبب الخصومات، لكن غالبا ما يقع الاتفاق إما بأداء مبلغ من المال وإمّا بمبادلة وأخرى، كأن يزوج الرجل الذي أخذ الهاربة إحدى بناتها وأخواته لزوج المرأة الهاربة[1].

وكذلك لمسنا عادة مهمة مارسها سكان الجزائر المسلمين على وجه الخصوص، وهي زيارة الأضرحة والتبرك بقبور الأولياء خصوصا في نفحة المسكية في سفارة تركية لتمقروتي[2]، أو احراز المعلى والرقيب...للمكناسي[3]، وكذا لسان المقال لابن حمادوش[4].

ومن عادات محمودة أخرى فقد روى الوزان أنّ "...الغريب إذا مرى بالمدية يكاد يحبسونه بالقوة، طالبين منه بتوسل وإبتهال أن يفصل في قضاياهم، ويحرر عقودهم ويفتيهم في نوازلهم[5].

[1]– حسن الوزان، مصدر سابق، ص 10.

[2]– تمقروتي، مصدر سابق، ص 90.

[3]– محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرّقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والتبرك بقبر الحبيب 1785، حققها وقدم لها محمّد بوكيّوط، ط1، دار السّويدي، الإمارات، 2003م، ص 330.

[4]– ابن حمادوش، مصدر سابق، ص126.

[5]– حسن الوزان، المصدر السابق، ص 10.

المبحث الثاني: الطعام واللباس

1- الطعام:

الجزائر في العهد العثماني كانت تزخر بعديد من الأطعمة المتنوعة التي يتناولها الجزائريون من بدو وحضر وأتراك كل حسب عادته، فقد تنوع طعامهم بين الخبز والدجاج والسمك والحليب والزبدة والزيتون والفواكه والخضر والكسكسي الذي يعتبر الصحن القومي للبلد[1].حيث ذكر إبن حمادوش عادة تتعلق بالأكل في بعض الاحتفالات كالاحتفال بيوم العنصرة بقوله " يأكلون في يوم العنصرة هشيم أذناب الضأن بالقرفة والكسكس، وهذا أكل غالب أهل وأما البراني فلا أدري "[2].

كما وصف الوزان الكيفية التي تعيش بها القبائل البدوية بقوله:"...أما غذاؤهم فإنّ من لم يراهم لا يصدق مدى صبرهم على الجوع، ليس من عاداتهم أن يأكلوا الخبز ولا أي طعام مطبوخ، يقتاتون بلبن لوقهم، تعوّدوا أن يشربوا في الصباح ملء إناء كبير من اللبن الساخن فور ما يحلب، وأن يتعشّوا في المساء بالقديد المطبوخ في اللبن المدهون بالسمن فإذا نضج اللحم تناول كل واحد نصيبه بيده وأكله ثم شرب المرق مستعملا يده كالملعقة وحسا أخيرا فنجانا من اللبن وقد تمّ العشاء. ومادام عندهم اللبن فلا حاجة لهم للماء لاسيما في الربيع، حيث لا يغسل بعضهم أيديهم ولا وجوههم إطلاقا، وسبب ذلك أنهم لا يقصدون أثناء تلك المدة مواقع الماء، لأن لديهم اللبن أولا ولأن الإبل عندما ترعى العشب لا تحتاج إلى الماء ثانيا... [3].

أما طعام الشائع في بلاد المغرب كلّها، بين لبدو والحضر على السواء، فهو الكسكسي، وقد وصف "الوزان "طريقة إعداد المغاربة لم تتغير إلى يومنا هذا حيث قال "...طعام يسمى الكسكسو، يصنعونه من الدقيق المبلل، يحوّل إلى حبيبات في حجم حبات

[1]- وليام شالر، مصدر سابق، ص 87.

[2]- عبد الرزاق ابن حمادوش، مصدر سابق، ص 94.

[3]- حسن الوزان، مصدر سابق، ص 58.

الكزبرة، تنضج في قدر ذات ثقوب (كسكاس) تسمح بطلوع بخار من قدر أخرى، ثم يخلط هذا المتبخر بعد نضجه بالسمن، ويسقى بالمرق..." [1].

فقد أشار الورثيلاني إلى نوع من لأنواع الأطعمة التي وجدت عند أحد الأولياء والمتمثل في خبز الشعير والزيت والتوابل حيث قال "...فلما وصلوا (الباي ومن معه) أتى لهم بخبز أظنه من شعير فكسره في الزيت وشيء من التوابل يقال له أجعجوع، والزيت لا يأكله إلا الخماس والراعي[2].

وعن غذاء أهل المدن، أن عامة السكان يأكلون اللحم مرتين في الأسبوع بينما يأكله الميسرون منهم مرتين في اليوم ويقول أنهم يجلسون للطعام ثلاث مرات في اليوم، إذ يتناولون وجبة خفيفة في الصباح، وهي عبارة عن خبز وحساء من دقيق القمح والفواكه.

أما وجبة الظهيرة فتكون عبارة عن طعام خفيف مثل الخبز والسلطة والجبن والزيتون، على أن طعامهم في الصيف يكون جيد التغذية. وفي العشاء يتكون الطعام من وجبة خفيفة أيضا مثل: الخبز والبطيخ، أو العنب أو اللبن، غير أنهم في الشتاء يتناولون في الشتاء كميات من اللحوم المطبوخ مع الكسكسي، ومن عاداتهم أيضا ألا يأكلوا اللحم المشوي وكلما زادت ثروة الشخص وارتفعت مكانته الاجتماعية تحسّن محتوى طعامه وازداد لطفا وعذوبة[3].

وفي الأعراس يأكل الأعيان لحوم البقر والغنم والدجاج الممزوجة أثناء الطبخ بأصناف من الخضر المتنوعة. أما عامة الناس فيأكلون الثريد المصنوع بالخبز الخفيف الذي يشبه الشرائط، على أن يغمس في مرق مخلوط بقطع من اللحم الكبيرة، ويؤكل الثريد في أواني كبيرة مزينة بقطع اللحم[4].

[1]– حسن الوزان، مصدر سابق، ص 253.

[2]– حسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 64.

[3]– حسن الوزان، المصدر السابق، ص 252–253.

[4]– المصدر نفسه، ص 257.

ويقول الوزان أيضا أثناء حديثه عن سكان الصحراء، أنهم لا يأكلون مع ضيوفهم بل يأكلون منعزلين بقربهم. ويبدو أنهم يريدون من ذلك، إعطاء حرية أكبر للضيف، كي يأكل ما يشاء ويتناول ما يستطيب دون مزاحمة أو حر.

وبذلك نستنتج أن لا شيء كبير قد تغيّر منذ عهود قديمة إذ كل الذي وصفه الرحالة لا يختلف عما نراه الآن تقريبا.

2- اللباس:

هو عنوان الذوق والأناقة عند الناس، وصورة لشخصية صاحبه والتعرّف عليه، لذلك أولى الأجانب الذين تواجدوا بالجزائر خلال العهد العثماني أهمية لدراسة ألبسة الطوائف الاجتماعية في الجزائر، فوصفوا مختلف الألبسة الخاصة بالأتراك العثمانيين والكراغلة، والعرب واليهود والنساء، يذكر "شالرز" (Shaler) أنّ اللباس العثماني يتألف من عدّة قطع، بعضها بالأكمام والبعض الآخر بدون أكمام، مفتوحة في الصدر ومزينة بأزرار وزخارف، وبعد ذلك تأتي السراويل فضفاضة تنزل حتى ركبة الساق، وكثيرا ما يلبس الرجال حزاما يلفه عدّة مرات حول وسطه ويعلّق عليه خنجرا أو مسدّسا، ويضع في طيّاته أيضا ساعته ومحفظة نقوده، أما عن لباس الرأس فهي العمامة والرجلين البلغة أما الجوارب فلا يلبسها إلا الشيوخ وفي حالة البرد فقط، كما يختلف نوع طبقات الناس والثروة والفصول[1]، وعليه نسترد ثلاثة أنواع من الألبسة لثلاث طبقات بالجائر العثمانية.

1- لباس الأتراك العثمانيين: يذكر "ويليام سبنسر" أنّ لباس الأتراك العثمانيين أنّ الرجل التركي يرتدي البرنوس، وهو ثوب فضفاض عريض، متصل بجوانبه بأكمام وقلنسوة* وأحيانا كان يضاف إليه ألبسة تحتية مهذبة، ويلبس ذوي الاعتبار من الرجال بدعتين*، أو

[1] – وليام شالر، مصدر سابق، ص83.

* قلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال، من معجم المعاني الجامع، معجم عربي عربي، ويعبّر عنها أيضا بالقبعة أو الطاقية.

* – بدعين: مثنى بدعية، وهي نوع من أنواع الصدريات، تغلق من الأعلى إلى الأسفل بأزرار، كانت تلبس من طرف الحكام والأغنياء، تصنع من قماش الجوخ (نسيج من الصوف)، مطرزة بخيوط ذهبية أو فضية، وليام شالر، المصدر السابق، ص 59.

ثلاث بدعيات مفتوحة عند الرقبة، تزركشها الأزرار والقطيفة*، وتكون مطرّزة بخيوط ذهبية أو فضية، ويلبسون كذلك سروالا مطرزا عريضا وفضفاضا، و..... خياطة السراويل بواسطة تطريز حريري واسع يلصق به سيفه وخنجره، ومسدسه، وعند نهايته يخبئ حاصلة نقوده من الحرير والساعة، لقد كان هذا اللباس مميّزا حيث عرف هذا الطرز مسافري البحر المتوسط بالطرز الجزائري[1] (انظر الملحق رقم4)

2- **أما لباس نساء الأتراك العثمانيين:** لقد وصف "ويليام سبنسر" لباس المتزوجات منهن بلبس الفرملة بشكل واسع، وهو اللباس ذو الحزام والمفتوح عند الصدر مع معطف أو أكثر بأكمام قصيرة معه، وإلى جانب ألبسة داخلية تدلى عليها السراويل مطلوقة عندما يكنّ ف المنزل، ولما يخرجن للحياة العامة فإنهن يضعن ثوبا مزركشا من ثلاث طبقات طولا يصل إلى الركبة، ويتحزّمن بشاش مزركش عريض، ثم تأتي سراويل عريضة، وفوق الكل يأتي الحايك الأبيض ويتحجّبن حتى عيونهن بقطعة قماش شفافة بيضاء.[2]

أما "شالر" فيصف لباس المرأة قائلا: "ولباس النساء العربيات بقدر ما أمكنني ملاحظته يتكون من قميص صغير يضع عند نساء الطبقة الغنية من أرفع المواد وأفخرها، ثم سروال ينزل إلى العقبين وثوب من حرير أو مادة أخرى، ويكون غنيا بالتطريز... وتلبس المرأة الجزائرية حذاءً ولكن بدون جوارب"، أما ما يخص الزينة فيقول أيضا: "والمرأة الجزائرية تعتني عناية خاصة بشعرها، وكثيرا ما يصل شعرها إلى الأرض، والمرأة الجزائرية لا تقتنع بالجمال الذي وهبها الله لشعرها ولحواجبها، فهي تعمل على صبغه بالأسود بطلاء خاص، أظافر أصابع أيديهن وكذلك يصبغن بالحناء أكفهن وأقدامهن"[3]

* – القطيفة: نوع من نسيج الحرير أو القطن تأخذ منه الثياب والفرش، ويصنع منه القفطان اللباس الفاخر، المصدر نفسه، ص61.

[1] – وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تر:/ نعامي عبد القادر زيادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، م1980، ص 86.

[2] – وليام شالر، مصدر سابق، ص 89.

[3] – وليام شالر، مصدر سابق،ص 85.

3- لباس الكراغلة:

ملابس الكراغلة هي عادة مزينة بالذهب أو الفضة، ومن الحرير، طبقا لغرور الشخص وثروته، أما شكل العمامة وثناياها ونوع المادة التي صنعت منها هي المقياس الذي يحكم الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها، وفوق جميع ملابسه يلبس الكرغلي برنسا يحمله على كتفيه ويغطي به كل جسمه".[1]

يرى سبنسر أنّ كل الجزائريين من غير الأتراك باستثناء اليهود كان لباسهم بسيط[2] ولعل اعتناء الكراغلة بهذا مهم تقليد ورثوه عن آبائهم الأتراك.

4- لباس اليهود ونسائهم:

أما لباس اليهود فكان يتّسم باللون الأسود من الرأس إلى القدمين، وذلك خلافا لبقية الجزائريين، ويلبسون لباسا ومعطفا ذا أكمام عريضة بشكل لا يمنع عن غسل الأطراف العليا وكذلك حزاما عريضا وخناجر كبيرة، وفي الشتاء يلبسون السراويل تضيق عند أدنى الركبة، وأحذية ملونة، ويمثل المسلم دائما غطاء الرأس.[3]

كما عرفت المرأة اليهودية ألبسة مطرّزة بالذهب ومرصّعة بالجواهر والأحجار الكريمة أو الفضة، وكذلك استعملت الحايك والخمار أو العصبة التي توضع على الرأس كالتاج للزينة والسروال النسائي الفضفاض الذي يتدلّى حتى القدمين لاعتبارات أخلاقية نتيجة تأثر المرأة اليهودية بالأخلاق والمحيط الإسلامي.[4]

من خلال ما كتبه الوزان وآخرون نلاحظ اختلافا في اللباس بين ما هو بدوي وما هو حضاري واختلافا أيضا بين بدو الصحراء وبدو الريف حسب الظروف المناخية واختلاف المستوى الحضاري والمادي، فأهل المدن المتحضرون والمرفهون يلبسون ألبسة أنيقة ورفيعة وجميلة، بينما يلبس فقراء وأهل البادية الألبسة الخشنة والبسيطة، وذلك تبعا لمقتضيات

---

[1] – المصدر نفسه، ص 83.

[2] – وليام سبنسر، مرجع سابق، ص 87.

4- المرجع نفسه، ص101.

[4] – فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزائر، 1996م، ص 135- 136.

الحضارة التي تجري وراء الكماليات، وتبعا لمستوى الذوق الجمالي بين أهل المدن وأهل البادية، ومع ذلك فإن لباس العامة والفقراء بالمدن يتقارب مع لباس أهل البادية في المواد التي تصنع منها الألبسة، حيث اتّضح بأن كل الألبسة ببلاد الجزائر لا تعدو أن تكون إما من الصوف أو من الكتّان، بينما لا يلبس ملابس القطن والحرير إلا الأعيان والأغنياء في المدن.

وعندما يصف الوزان ملابس أهل تلمسان يقدم للقارئ صورة جلية عن مستوى الأناقة في تلك المدينة، بينما يصف أحيانا أهل الريف وأهل الصحراء فتتجلى الصورة البسيطة والرديئة التي هب عليها.[1]

يرى الوزان أنّ "أبشع لباس في تلمسان هو الجدوة وهو عبارة عن قميص واسع بكمين عريضين يضعون فوقه كساءُ كبيرا جدا من القطن سواء في الشتاء أو الصيف، على أنهم يرتدون ف الشتاء أيضا سترة من الجلد، كما أنّ أصحاب الرتبة من العسكريين يرتدون فوق القميص كساءً، ثم يضعون فوقه معطفا يمكن أن يغطي رؤوسهم عند نزول المطر.

ومن حديث الوزان عن بعض المدن الأخرى دلس والجزائر وبجاية، وصف لباس سكانها بالأنيق واللائق، أما سكان قسنطينة فيقول أنهم مقتصدون في لباسهم.[2]

ومع هذا فإن لباس أهل البادية يختلف بدوره حسب اختلاف الأوضاع الاقتصادية والثقافية للسكان، فأهل البادية يتّخذون لباسهم تبعا للظروف الطبيعية وتبعا للعادات التي لها علاقة وطيدة بثقافتهم الخاصة، حيث أشار الوزان إلى هذا الاختلاف دون شرح حيث قال: "فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي يلبس لباس الأعراب... أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن...[3]

كما أورد الوزان نصا يصف فيه لباس القبائل المتواجدة في الصحراء فيقول: "يتركّب لباسهم من عباءة منسقة من الصوف الخشن، ويضع كل واحد منهم على رأسه أو يلف

[1] – الوزان، مصدر سابق، ج 2، ص 13.

[2] –المصدر نفسه، ص 56.

[3] – حسن الوزان، مصدر سابق،ص 21.

حول وجهه قطعة من النسيج الأسود على شكل عمامة، ويتميّز الأعيان والأعراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه تجّار يأتون من أرض السودان[1]، وهذه الأوصاف تنطبق تماما على التوارق في أقصى الصحراء.

على العموم فإن لباس الرجال بالجزائر يتكون من قميص داخلي وسروال يكون أحيانا قصيرا وأحيانا أخرى طويلا إلى الكعبين، ثم جلباب وهو عبارة عن قميص أو ثوب واسع، ثم برنس أو قشابة أو حايك (إزار) (انظر الملحق رقم 3)

أما لباس النساء هو عبارة عن قميص من القطن وسروال على أن يضاف بعض الأثواب الصوفية في المناطق الباردة، ثم إزار من الحرير بالنسبة للأغنياء أو من الكتان وربما من الصوف الخاص، ويشبك على طرفي الصدر في الأعلى والأمام بسلسلة ذهبية أو فضية حسب مكانة المرأة اجتماعيا[2]، ومازال هذا النوع من اللباس معروف في الجزائر ويستعمل في أرياف الجزائر وصحرائها. (انظر الملحق رقم 3)

المبحث الثالث: الصحة.

لقد زوّدنا بعض الرحالة المغاربة بمعلومات وإن كانت قليلة عن الوضع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث أشاروا إلى بعض الأمراض والأوبئة التي كانت تنتشر بين الناس وكيف تعامل معها السكان، وكذا الجوائح التي شهدها زمن الرحالة ومدى انعكاسها على الأوضاع الاجتماعية في المنطقة.

1- الأوبئة المنتشرة:

عرفت منطقة الصحراء خلال القرن 17م العديد من الأمراض والأوبئة التي كان لها التأثير على المجتمع الجزائري مسّت جميع جوانبه الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، كما انعكست على النمو الديموغرافي بشكل ملموس.

[1] – المصدر نفسه، ص 58.

[2] – نفسه، ص 59.

ومن بين هذه الأوبئة التي عرفتها المنطقة آنذاك "الطاعون" الذي يعتبر من اخطر الأمراض عانت منه مختلف الفئات الاجتماعية في كثير من المرّات وفي مختلف الفترات التاريخية، وهذا ما أكده الحسن الوزان، فهو يظهر كل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة، أو خمس وعشرين سنة، ويقول عندما يأتي يذهب العديد من الناس.[1]

يرجع أول تاريخ ظهور له بالجزائر عموما إلى عام 1514م، واستمر في الظهور على فترات معيّنة إلى غاية عام 1822م[2]، ولم يكن هذا الوباء وليد البيئة الجزائرية بل غريب عنها، فقد اجتاحها من خلال الحركة السكانية عن طريق ابر أو سفن البحر من طرف الحجاج أو التّجار، وكثيرا ما كان مصدره من جهة الشرق، إذ تعدّ بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية ومصر وليبيا موطنا لهذا المرض.*

أما في السنة التي زار فيها العياشي المنطقة، فكان الوباء قادما من تونس وامتدّ وصوله إلى الجزائر عامة وبصفة خاصة إلى بايلك الشرق، وفي 1667م عاد الطاعون من الطريق نفسه لتصبح الجزائر عامة بؤرة انتشار هذا الوباء في كامل أنحائها، خاصة في الجنوب، كبسكرة ووادي ريغ.[3]

فعندما توفي العياشي بمدينة بسكرة أثناء عودته من الحجّ وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى نجده يخبر عن الوباء الحاصل سنة (1060هـ/ 1660م) وذلك في حديثه عن شيخ معلمه أبو مهدي الثعالبي الذي توفي بالوباء الحاصل في تلك الناحية.[4]

---

[1] – حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 85.

[2] – ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في أواخر العهد العثماني1792–1830، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2012م، ص 125.

* – الظاهر أن الوباء كان سبب انتشاره هو السفن التي كانت ترسو في موانئ المدن، وهي التي كانت تحمل الوباء، وبالتالي انتقل من سكان المدن إلى المناطق الداخلية. انظر:ة مؤيد محمود محمد المشهداني وسلوان رشيد، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1830– 1518م)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع 16، نيسان 2013م، ص 434.

[3] – مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، ترجمة حصرية: يوسفي وهبة حابت، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال،(د،ط)، الرويبة، ANEP، ص 39.

[4] – أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج2، مصدر سابق، ص 593.

وعند نزوله بسيدي عقبة تحقق الوباء في البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة فلم يدخل الرحالة لزيارته.

وفي موضع آخر أشار العياشي إلى تعرّض المنطقة إلى نفس الوباء قبل سنتين مشيرا إلى وفاة إحدى الشخصيات العلمية البارزة في المنطقة، فيقول: "... وقد أقمت بها سنة تسع وخمسين، رجلا من الصالحين... واسمه سيدي بوطبيب نصير... ولما رجعت من الحجاز سنة تسع وستين وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة، م يردّ قائلا، عند تفشي ذلك المرض في هذه المنطقة بشكل لافت للنظر: "... وكان الوباء مفرطا، مات به في بسكرة على ما قيل نحو سبعين ألف نفس، وقد دخلنا مدينة عقبة ووجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها دائرة.[1]

ونفس الملاحظة نقلها الورثيلاني عن خبر الوباء ومخلفاته وكيف جعلها خرابا، فقال: "... ثم نزل عليهم الوباء ولم يبق فيها إلا الحثالة من الناس".[2]

ثم راح الطاعون ينتقل من قسنطينة سنة 1663م وبسكرة وسيدي عقبة، كما أخبر العياشي لدى عودته من مكة المكرمة، فعند نزوله زريبة حامد أين ساد الخلاف بين أهلها حول الاحتراز من العدوى والابتعاد عن الشخص المريض بوباء الطاعون أو يتركه للأقدار فيقول: "... وجدناهم متحصّرين أمرهم لطروق الوباء في نواحيهم، وتخوّفوا أن يدهمهم في بلدهم وعزموا على الفرار... وسألوا هل يصوغ لهم ذلك قبل وصله إليهم أو لا... ورخصت لهم في الخروج.[3]

وقال الزياني: "ثم بعد إقامتنا سنة ونصف خرجت من منطقة زواوة إلى مدينة الجزائر فرارا من الوباء الذي حلّ بها، أي الوباء الذي حلّ بمدينة تلمسان، وكان عاما في العمائر، حيث أنه أصابك الكثير وأدى بموتهم وهلاكهم، فكان وباءً فتاكا، ولما بلغنا المدينة أي الجزائر العاصمة وجدنا الوباء بها خفيفا، فنزلت خارجها وبنيت مضاربي ووجهت من حاشيتي ما يأتيني باللوازم من لحم وحطب وعلف دواب، فما رجع إلا وأنا مصاب بالحمى

[1] – مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص 102.

[2] – الورثيلاني، مصدر سابق، ص 118.

[3] – أبو سالم العياشي، مصدر سابق، ص 588.

فدعاني للعشاء فلم أقدر، ولما أصبح رأيت المكان الذي أصبحت فيه متورما فعالجته بما عرفت فأقام ثلاثة أيام وانفجر، وسرت أعالجه بالمراهم إلى أن حصلت الراحة.[1]

كما يتحدّث المكناسي عن الوباء في عاصمة إيالة الجزائر فيقول: "ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قويا، فكان يموت كل يوم على ما حكي لنا نحو الثلاثمائة، وقد خفّ أمره لما كنا هناك فكان يموت في اليوم نحو العشرة ".[2]

اعتمادا على تقارير بعض الرّحالة والأطباء الأوروبيين الذين تعرّفوا في تلك الفترة على أحوال البلاد خلصوا إلى أنّ البلاد الجزائرية تعتبر بيئة صحية خالية من الأمراض والأوبئة المعدية، وأنّ تلك الأمراض المهلكة كانت تتسبّب فيها علاقة الجزائر بأقطار المشرق العربي وبلاد السودان وجنوب المغرب الأقصى، وبعض المناطق بأوروبا[3]، ومن الواضح أنّ طريق الحج والمجندين كان من أهم الطرق التي انتقلت بواسطتها الطاعون وتلك الأوبئة، فالسفن التي كانت تنقل الحجاج من الإسكندرية إلى مدن الإيالة الساحلية كانت سببا في انتشار بعض الأمراض[4]، ومن الملاحظ أنّ معظم السنوات التي تصاب فيها قسنطينة ومصر بوباء الطاعون إلا وظهر في الجزائر بسبب الملاحة البحرية أي حركة السفن، وقد لاحظ "هايدو" ذلك منذ القرن 10هـ/ 16م إذ قال: "الطاعون ينتقل إلى الجزائر من الخارج ولا غرابة في ذلك، نظرا لعدد السفن المحملة بالبضائع التي كانت تدخل ميناء الجزائر دون انقطاع، قادمة من مختلف الجهات"[5]، وهذا ما يؤكده نقيب الأشراف بقوله: "عندما بعثت المراكب المهداة من اسطنبول جاء معها الوباء إلى الجزائر".[6]

---

[1] – مولاي بلحميسي، مرجع سابق، ص 174.

[2] – محمد بن عبد الله المكناسي، مصدر سابق، ص 330.

[3] – ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 53.

[4] – ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص 54.

[5] – سعاد عقاد، الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر (1519– 1830م)، دار السلطان أنموذجا، رسالة ماجستير، أشرف محمد، جامعة وهران، 2014م، ص 54.

[6] – أحمد شريف الزهار، مصدر سابق،ص 127.

ومما زاد من حدّة هذه الأمراض جهل أغلبية الأهالي بأبسط قواعد الصحة، وبالتالي لم يهتموا بمحاربة الأوساخ، ولم يعملوا على استصلاح المستنقعات المنتشرة في سهل متيجة رغم أنها كانت تتسبّب في زيادة حمى المستنقعات وبالخصوص في فصلي الربيع والخريف.[1]

فضلا عن كار الوباء كان وباء الطاعون كانت البلاد عرضة لأمراض أخرى من أهمها الجدري وحمى المستنقعات وحمى التفرس.[2]ويذكر الوزان بعض الأمراض التي كانت تظهر من جانب آخر والتي كان من بينها الرأس الذي يصيب كثير من الناس، ومرض المعدة يصيب الكثير منهم يوميا، وأوجاع حادة في أسماعهم ومرض النقرس يصيب القليل الذين يأكلون الأطعمة الناعمة الشهرية، وكذلك مرض السعال.[3]

وروى الوزان قصة طريفة حول مرض السعال بقوله: "كثيرا ما يلتقي في المساجد يوم الجمعة في الوقت يجتمع فيه عادة آلاف الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين سعل آخر، ثم آخر، وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريبا إلى نهاية الخطبة فيتفرقون دون أن يسمع احد إليها.[4]

إضافة إلى مرض الإفرنج (الزهري) الفظيع بأوجاعه، الذي حمله عدد كبير من يهود إسبانيا عندما توافدوا إلى الجزائر، وأيضا مرض الأعصاب عند الأطفال لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم ويصاب به كثير من النساء.[5]

2- الإجراءات التي اتخذتها السلطة الجزائرية لمواجهة الأوبئة:

كان موقف السلطة واضحا من هذه الأوضاع التي أصابت الجزائر، حيث أهملت الإجراءات الوقائية ضدّ دخول الطاعون إلى البلاد، إذ لم تمنع دخول السفن والأشخاص

[1] – سعاد عقاد، مرجع سابق، ص20.

[2] – عائشة غطاس، حرف والحرفيون، مرجع سابق، ص 61.

[3] – حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 83.

[4] – المصدر نفسه، ص 83- 84.

[5] – حسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص 84- 85.

القادمين من المناطق الموبوءة ولم تطبق عليهم الحجر الصحي المعروف بالكرنتينة*، مع العلم أنّ هذا النظام كان مطبّقا في كل من طرابلس وتونس والمغرب الأقصى وأوروبا منذ مائتي سنة، وهذا ما يستخلص من قول حمدان بن عثمان خوجة الذي قال: "اشتهر في بلاد الإفرنج الاحتماء من الوباء وأعدّوا لذلك الموضع، وسموه كرنتينة، إنما هي الاحتماء وجعلوا ذلك المحل ف مداخل الداخلين إليهم".[1]

وقفت السلطات المحلية عاجزة أمماه لا تقوى على اتخاذ أي تدابير لما كان اختلاف بين رجال الدين، فيما يتعلّق بمعاملة المصابين ومعالجتهم، فمنهم من يدعو للاحتراز معتمدا على قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)﴾[2]، ومنهم من يدعو إلى الاحتراز معتمدين في رأيهم على قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾.[3]

ومع هذه فقد قامت السلطة بتعليق بعض التدابير الوقائية إن لم تكن ضد القادمين من البلدان الأجنبية فهي ضد المناطق الموبوءة في البلاد، مثلا منطقو بوزريعة ذات جو صحي، إذ عدّت منطقة تطهير للمنطقة العثمانية من أوبئة سهل متيجة، فبعد أن تعتبر هذا السهل وتجمع الضرائب تعود إلى مدينة الجزائر، وقبل الدخول إليها تظل لبضعة أيام مستقرة فوق مرتفعات بوزريعة لتتطهر من جرثومة الوباء التي حملتها من السهل ثم يسمح لها بالدخول إلى المدينة.[4]وذكر العياشي الخطوات الوقائية للاحتراز من الوباء في مدينة الأغواط وذلك بتشديد الحراسة على المدينة ومراقبة الوافدين عليها، مما يقيها من الأمراض المختلفة إذ لا يسمح بدخول أي غريب يشكك في إصابته بالوباء، وهذا ما حدث لهم عند نزولهم بالمدينة، فقد طلبت قافلة من الأعراب تخبر أهلها بمنع الركب من دخول المدينة بسبب

* – الكرنتينة: الحجر الصحي: إقامة جبرية في معزل لمدة 40 يوما، عند الثغور لك وارد أجنبي بسلعة سواء كان مريضا معديا أو مشكوك فيه حتى يتحقق برءه وسلامته، ينظر: حمدان بن خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تح: محمد بن عبد الكريم، سلسلة ذخائر بلاد المغرب العربي، ش و، الجزائر، 1988م، ص 118– 119.

[1] – حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، مصدر سابق، ص 79.

[2] – سورة البقرة، الآية 195.

[3] – سورة التوبة الآية 51. انظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 102.

[4] – عقاد سعاد، مرجع سابق، ص 56.

وجود الوباء بينهم، بحيث يقول: "فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم ولم يخرج أحد منهم للركب وكانوا يدلون الزرع من فوق السور، ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل حتى لا يلمسوا شيئا من أيدينا... [1]

أما عن المستشفيات قلم يهتم حكام الجزائر بتشييدها، ما عدا المحاولة التي قام بها حسن خير الدين ببل رباي الجزائر في عام 1549م، وهو يحتوي على خمس غرف، إلا أنه كان يفتقر إلى التجهيزات والأدوية الضرورية، أما ما تبقى فهي عبارة عن مصحات وملاجئ العجزة مثل مصحة زنقة الهواء، وملجأ الأمراض العقلية المخصص للأتراك بالإضافة إلى مارستانات رجال الدين المسيحيين التي كانت تنفق عليهم الدولة الأوروبية ومن أهمها المارستان العام لرجال الدين الأسبان الذي أقيم عام 1551م لفائدة الأسرى المسيحيين وكذلك المستشفى الذي أنشأه الراهب المعروف "فراريدو عام 1662م داخل سجون الجنينة بالقرب من باب عزون وغيرهم.[2]

وما يمكن استنتاجه أن تلك المرافق الصحية لم تكن سوى أماكن للعلاج تابعة للسجون، وكانت تحت إشراف رجال الدين وكانت تحتوي على وسائل بدائية.

كما كان لقلة الأدوية مما زاد في سوء الحالة الصحية، فالبلاد كانت تكاد تخلو من صيدليات أو حوانيت بيع الأدوية، فحسب المعلومات المتوفرة لم تكن توجد بالبلاد سوى صيدلية واحدة بمدينة الجزائر، وكانت بالقرب من قصر الداي إذ يوجد بها مختلف أدوات العلاج والأدوية، كان يشرف عليها الباش جراح الذي قال عنه الرحالة الألماني "مارسول" (Marsol) أنه كان يجهل المواصفات والقواعد الطبية لهذه العقاقير، وهذا دليل على التقليل من كفاءة الباش جراح الذي قال عنه "لامارك (Lamarque) أنه طبيب علمي.[3]

[1] – أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، مصدر سابق، ج 2، ص 520.

[2] – ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص 125.

[3] – عقاد سعاد، مرجع سابق، ص 57.

لمعالجة الكثير من الأمراض التجأ السكان إلى المعالجة بالأعشاب والنباتات الطبيعية التي كانت تزخر بها الجزائر، حيث كانت هذه الأعشاب تقطف وتباع في الأسواق، الأمر الذي جعل اليهود يهتمون بتجارة العقاقير وكذلك بني ميزاب.[1]

من هذا نستخلص أنّ حالة المجتمع التي آل إليها نتيجة الأحوال الصحية والتي كان أول أسبابها الطاعون، قد أثرت بشكل سلبي على المجتمع الجزائري في شتى المجالات.

[1] – عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1519– 1830)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: محمد دادة، جامعة وهران، 2014م، ص 68.

خاتمة

من خلال دراستنا المتواضعة لموضوع الحياة الاجتماعية من خلال الرحالة المغاربة خلال العهد العثماني، وقفنا على جملة من النتائج أهمها:

– كانت الرحلة عونا كبيرا للباحث في التاريخ، باعتبار أنها من أهم المصادر التاريخية التي زخرت بالكثير من الأخبار التي نقلت لنا عن طريق المشاهدة والمعاينة، فساهم بذلك الرحالة عموما والمغاربة خصوصا في توسيع معارفنا حول واقع المجتمع الجزائري.

– إن كتب الرحالة المغاربة قد حملت في طياتها حقائق تاريخية تمثل مختلف الجوانب عن الجزائر حيث أعطتنا صورة واضحة ومعبرة عن الحياة الاجتماعية.

– إنّ تنوع الفئات السكانية التي كان يتشكل منها المجتمع الجزائري، يعود إلى العهد العثماني، كانت نتيجة علاقات المصاهرة بين الوافدين من المشرق وأوروبا مع العنصر المحلي. نجد المجتمع الجزائري يتخذ تركيبا هرميا، ففي قمة الهرم الطائفة التركية ثم يليها جماعة الكراغلة، ثم فئة الحضر بما فيها الأندلسيين والأشراف، ثم الجالية اليهودية والمسيحية، وفي أسفل الهرم نجد جماعة البرانيين ويأتي الزنوج في آخر السلم الاجتماعي، أما بالنسبة للكراغلة فقد كانوا يطمحون إلى الارتقاء للمرتبة الأولى في المجتمع، لكن العثمانيون منعوهم واعتبروهم عنصرا كرغليا يشكل خطرا على مصالحهم.

– أما بخصوص النمو الديموغرافي فلم تكن الأوضاع على الصعيد الاجتماعي أحسن حيث شهدت الجزائر تدهور الأوضاع المعيشية والصحية بسبب انتشار الأمراض والأوبئة من بينها مرض الطاعون، الزلازل والمجاعات وغيرها بالإضافة إلى الحملات الأوروبية.

– كانت الحياة الاجتماعية للسكان لها طابعها ومميزاتها الخاصة، التي تجمدت في عاداتهم وتقاليدهم، ومن أنماط العيش لدى المجتمع من خلال حفلات الاجتماعية والدينية، أما بالنسبة للاحتفالات الاجتماعية تتمثل في الاحتفال بالزواج الذي يعتبر من أهم النظم الاجتماعية في حياة الأفراد والمجتمعات القائم على بناء الأسرى فبصلاحها يصلح المجتمع،

كما يعد الاحتفال بازدياد المولود الجديد عرسا كبيرا يختن فيه، أما فيما يخص الاحتفالات الدينية في الجزائر خلال الفترة العثمانية لم تتغير على ما كانت عليه سابقا فالجزائريون يحتفلون بإحياء ليلة القدر، كما يقيمون بالاحتفال بالعيد الأضحى والفطر، إضافة إلى الحج، لم تكن هذه الاحتفالات وليدة الفترة العثمانية، إنما توارثها الجزائريون.

– يعتبر اللباس في الجزائر من العادات والتقاليد التي توارثها على العنصر التركي، فكان تأثير المرأة الجزائرية بملابس المرأة التركية أثرا بالقوة على المجتمع الجزائري، كما نجد لباس الرجل لم يختلف عن لباس الأتراك العثمانيون.

– وأخيرا أن المجتمع الجزائري حالته الصحية كانت متردية حتى ولو لم يعرف أمراضا كثيرة نظرا لإهمال الرعاية الصحية من طرف السلطة العثمانية، فالرعاية الصحية كانت لا تتجاوز المبادرات والاجتهادات الشخصية.

– وقلة الأمراض المنتشرة في أوساط المجتمع الجزائري يمكن أن نفسره بطبيعة المناخ ونوعية التغذية، أما الأوبئة لاسيما وباء الطاعون فإنّه تسرّب إلى الجزائر من الخارج، خاصة من الدول المشرقية نظرا للاتصالات المكثفة معها.

ملاحق

الملحق رقم 01: جدول يبين عدد سكان الجزائر أواخر القرن الثامن عشر ميلادي

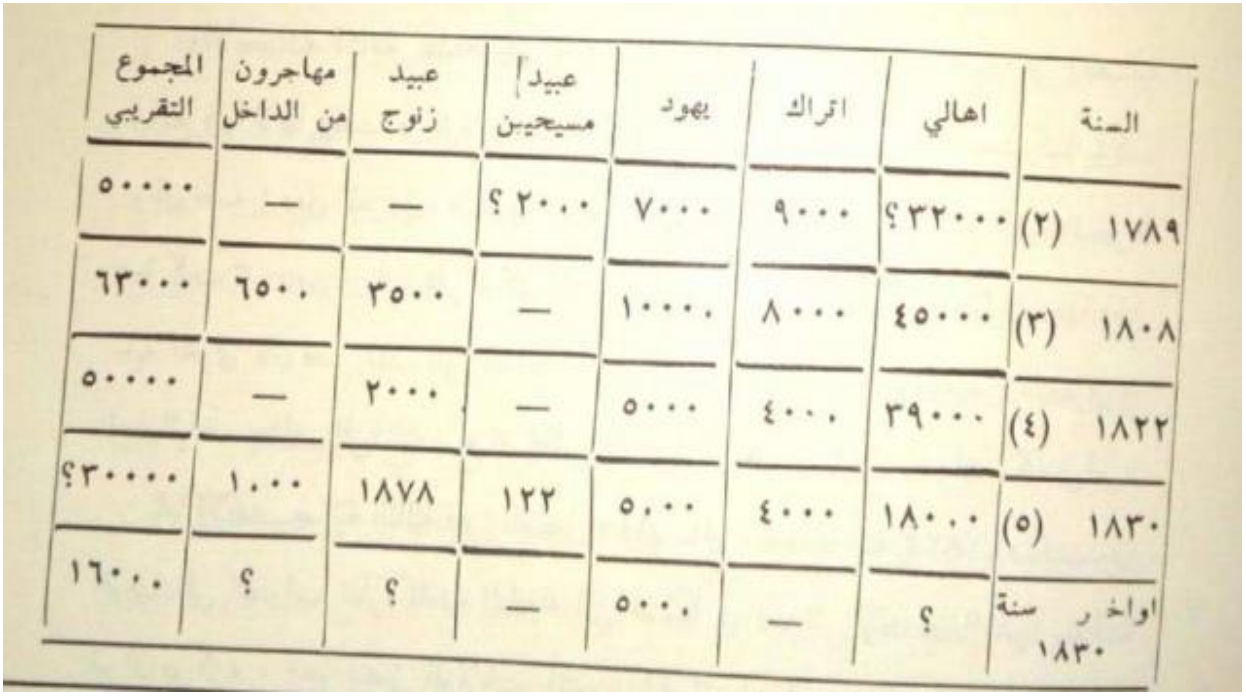

السنة	اهالي	اتراك	يهود	عبيد مسيحيين	عبيد زنوج	مهاجرون من الداخل	المجموع التقريبي
١٧٨٩ (٢)	؟٣٢٠٠٠	٩٠٠٠	٧٠٠٠	؟٢٠٠٠	—	—	٥٠٠٠٠
١٨٠٨ (٣)	٤٥٠٠٠	٨٠٠٠	١٠٠٠٠	—	٣٥٠٠	٦٥٠٠	٦٣٠٠٠
١٨٢٢ (٤)	٣٩٠٠٠	٤٠٠٠	٥٠٠٠	—	٢٠٠٠	—	٥٠٠٠٠
١٨٣٠ (٥)	١٨٠٠٠	٤٠٠٠	٥٠٠٠	١٢٢	١٨٧٨	١٠٠٠	؟٣٠٠٠٠
أواخر سنة ١٨٣٠	؟	—	٥٠٠٠	—	؟	؟	١٦٠٠٠

عبد القادر حليمي، مرجع سابق، ص 255.

الملحق رقم 02: فرد عاصمي وامرأة بربرية.

أحمد سليماني، مرجع سابق، ص ص 62-63

الملحق رقم 03: لباس المرأة بمدينة الجزائر بالعهد العثماني

نصر الدين براهامي، تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، منشورات ثالة،2010م، ص ص 2016-220.

الملحق رقم 04: لباس الرجل في مدينة الجزائر في العهد العثماني

نصر الدين براهامي، مرجع سابق، ص 201.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر:

1- ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمته، تحقيق: عبد السلام الحدادي، خزانة ابن خلدون بين الفنون والعلوم والآداب، ط1، دار البيضاء، مغرب، 2005م.

2- خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تقديم وتعريب:الزبيري العربي،ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م.

3- درعي أبو عباس أحمد بن محمد بن ناصر،الرحلة الناصرية،ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، الإمارات العربية المتحدة2011م.

4- الزهار أحمد شريف، مذكرات أحمد شريف الزهار نقيب أشراف الجزائر1168هـ1246هـ/1754م .1830م، تحقيق: أحمد التوفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974م.

5- ابن حمادوش عبد الرزاق،لسان المقال في النبأ عن النسب الحسب والحال، تقديم وتعليق: أبو قاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1983م.

6- أبو راس محمد ابن أحمد الناصر، فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وتعليق عبد الكريم الجزائري، م،و،ك، الجزائر 1990م.

7- التمقروتي علي، النفحة المسكيّة في السفارة التركية، تقديم وتعليق سليمان الصيد المحامي، ط1، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتوزيع، تونس1998م.

8- الزياني أبي قاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الجيلالي، مكتبة الفضالة، المغرب 1967م.

9- شالر وليام، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر(1816.1824)،تعليق وتقديم: إسماعبل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م.

10- عبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق:علي إبراهيم الكردي، دار سعد الدين، ط2، دمشق 2005م.

11- العنتري محمد صالح، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم:رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974م.

12- العياشي أبي سالم محمد:

- الرحلة العياشية إلى ديار النورانية، ج2، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت،(د،ط)، لبنان (د.س).

- الرحلة العياشية . ماء الموائد .،ج1، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1،الامارات العربية المتحدة 2006م.

- إتحاف الإخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تحقيق محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

13- الفاسي ابن زاكور، نشر أزاهير البستان في من أجازني بالجزائرو تيطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق:مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، معرفة الدولية للنشر والتوزيع،(د،ط)، الجزائر 2011م.

14- المكناسي محمد بن عبد الوهاب، رحلة المكناسي، إحراز المعلى والرّقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشّريف والتبرك بقبر الحبيب 1785، حققها وقدم لها بوكيّوط، ط1،دار السّويدي، الإمارات،2003م.

15- هابنسترايت،ج، أو، رحلة العالم الألماني ج. أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ /1732م،ترجمة وتقدير وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م.

16- الورثيلاني الحسين بن محمد، رحلة الورثيلانية،نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار،ج1، مكتبة الثقافة الدينية، ط1،القاهرة 2006م.

17- الوزان حسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1وج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،، لبنان 1983م.

ثالثا: المراجع:

1- الأخضر محمد، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1664- 814)، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، ط1، المغرب1977م.

2- أنساعد سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى،(د،ط)، الجزائر 2009م.

3- بالحميسي مولاي، الجزائر من خلال الرحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط2، الجزائر 1981م.

4- بحري أحمد، الجزائر في عهد الدايات،(دراسة للحياة الاجتماعية إبّان الحقبة العثمانية)،ج2، دار الكفاية، الجزائر 2013م.

5- بن قبنة عمر، اتجاهات الرحالين المغاربة في الرحلة العربية الحديثة،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.

6- براهامي نصر الدين، تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، منشورات ثالة، 2010م.

7- التازي عبد الهادي، ابن بطوطة أمير الرحال، دار العربية والنشر، ط2، الكويت 2002م.

8- حليمي علي عبد القادر، مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، المطبعة العربية، الجزائر1972م.

9- رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، (د،ط)، جدة،(د،س).

10- سبنسر وليام، الجزائر في عهد الرياس، تحقيق: عبد القادر زيادية، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر 2006م.

11- سعد الله أبو قاسم:

- أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، الطبعة الخاصة، دار البصائر، الجزائر 2007م.

- تاريخ الجزائر الثقافي (1500. 1830م)،، ج2، دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت 1998م.

12- سعد الله فوزي، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار اللامة، الجزائر 1996م.

13- سعيدوني ناصر الدين ومهدي بوعبدلي:

- الجزائر في التاريخ العهد العثماني،ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.

- النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني، ط3، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر2012م.

14- سليماني أحمد، تاريخ المدن الجزائرية، دار القصبة، الجزائر 2007م, الشامي صلاح الدين، رحلة عين الجغرافية المبصرة، دار المعرفة، ط2، الإسكندرية 1999م.

15- الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني،ج1، منشورات عكاظ، (د،ط)، الرباط (د،س).

16- طوبال نجوى، يهود مدينة الجزائر خلال عهد الدايات 1700م-1830م، من خلال سجلات المحاكم الشرعية،وزارة الثقافة، الجزائر 2009م.

17- فهيم حسين محمد، أدب الرحلة، دار عالم المعرفة، (د،ط)، الكويت 1978م.

18- قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة دار العربية للكتاب، ط2، القاهرة 2002م.

19- موافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في أدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع هجري)، دار النشر لجامعات المصرية، مكتبة الوفاء،ط1، القاهرة 1995م.

20- محمد يوسف نواب عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ المجاز في القرنين السابع والثامن هجريين- دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية،(د،ط)، الرياض 1996م.

21- محمود الحسين حسني، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط2، لبنان، 1983م.

22- محمود محمدين محمد، الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي، ط2، الرياض 1996م.

23- مري عبد السلام عبد القادر بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى،ج1، دار الفكر للطباعة والنّشر،ط1، الرباط1997 م.

24- مصطفى ضيف محفوظ، ثلاث رحلات مغربية ويليه مجموع رحلات جزائرية طبعة خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر.

25- نصار الحسين، أدب الرحلة، دار نوبار للطبعة والنشر، ط1، القاهرة 1991م.

رابعا: المجلات:

1- زمامة عبد القادر، مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى الشرق، مجلة المناهل، العدد25، 1982م.

2- شرف موسى، أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال العلاقات المغربية رحلتي أبي سالم العياشي وابن الدين الطيب الشرفي والهلاني نموذجا قضايا تاريخية، العدد6، 2017م.

3- شهداني مؤيد محمد محمود وسلوان الرشيد، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني (1518.1830)، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، العدد 16، 2013م.

4- فاضل إسماعيل، الرحلة في طلب الحديث، مجلة آداب البصرة، العدد 38،(د . ب)، 2005م.

خامسا: الرّسائل الجامعية:

1- بالعمري فاتح، الحياة الحضارية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ (شعبة المدينة والحياة الحضرية في المغرب الإسلامي، جامعة قسنطينة، 2016. 2017م.

2- برادع زوبيدة وعيساوي فتيحة، أدب الرحالة في الجزائر . رحلة ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة عربية والأدب العربي جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، 2015.2016م.

3- بن فاطمة نجاة وناجي نجاة،كتاب الرحالة حول الجزائر في الفترة الحديثة، مذكرة لنيل شهادة ماستر في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، جامعة الوادي،2017-2018م.

4- بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م)، رسالة ماجستير في تاريخ الحديث، إشراف محمد دادة، جامعة وهران، 2014م.

5- سلمي حنان، الوضع الديموغرافي في الجزائر العثمانية وانعكاساته في القرنين (10.13هـ -16-17م)، مذكرة لنيل شهادة ماستر في تاريخ الجزائر الحديث، جامعة المسيلة،2018-2019م.

6- شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني 1519-1830م، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الحديث والمعاصر، إشراف عمار بن خروف، جامعة الجزائر،2005- 2006م.

7-عقاد سعاد، الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر(1519-1830م) دار السلطان نموذجا،رسالة ماجستير في تاريخ الحديث والمعاصر، إشراف محمد دادة، جامعة وهران، 2014م.

8- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر(1700-1830م)، مقاربة اجتماعية اقتصادية، أطروحة لنيل الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2000م.

9- محرز أمين، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2007-2008م.

10-مراح فاطمة وحازم سمية، الأوضاع السياسية والاجتماعية جزائر أواخر العهد العثماني (1766-1830م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ حديث ومعاصر، جامعة خميس مليانة، 2016-2017م.

11-مقدم فاطمة، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة عربية وآدابها ضمن مشروع: الأدب رحلي المغاربي، جامعة وهران، 2010-2011م.

سادسا: المعاجم والقواميس:

1- ابن المنظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

2- شيرازي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: قاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، 2008م.

3- منجد الوسيط في العربية المعاصرة،(دون مؤلف)،دار المشرق، ط1، بيروت 2003م.

4- النويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت، 1980.

فهرس المحتويات

الفهرس

مقدمة.....5

الفصل الأول: 6

تاريخ الرحلة وتطورها 6

تمهيد: 7

المبحث الأول: تعريف الرحلة:.....8

المبحث الثاني: دوافع الرحلة: 11

المبحث الثالث: أنواع الرحلة وأهميتها: 14

المبحث الرابع: نظرة عن الرحالة المغاربة: 20

الفصل الثاني:..... 27

بنية المجتمع لمدينة الجزائر 27

المبحث الأول: التركيبة السكانية: 28

المبحث الثاني: الأوضاع الديموغرافية: 39

الفصل الثالث: 45

مظاهر الحياة الاجتماعية في الجزائر 45

المبحث الأول: العادات والتقاليد: 46

المبحث الثاني: الطعام واللباس 52

المبحث الثالث: الصحة..... 58

خاتمة..... 66

ملاحق 69

قائمة المصادر والمراجع..... 74

فهرس المحتويات 82